رائحة المطر

قصص

منى سعيد



2005

رائحة المطر

نفرو للنشر والتوزيع

الإشراف العام:
محمد الحسينى

المراسلات:
٢١ ش الصناديلى بالجيزة
تليفون:
٥٧١٢٦١٨
موبايل:
٠١٠٢٣١٣٥٧٩
الموقع الإلكترونى:
www.dar-nevro.i8.com
البريد الإلكترونى:
dar_nevro@hotmail.com

جمهورية مصر العربية

اسم الكتاب:
رائحة المطر
اسم المؤلف:
منى سعيد
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:
٥٠٩٠ / ٢٠٠٥

تصميم الغلاف:
كامل جرافيك
لوحة الغلاف:
الفنان عمر جهان
جمع إلكترونى :
حسام الدين سعد الدين

الطبعة الأولى
٢٠٠٥

إهـــــداء ..

إلى والدىّ الحبيبين ..

إلى غاليتى وصديقتى :

هدى سعيد ..

أول من قرأ لِىَ وشد على يدى

الفهرس

الصفحة

تابع الفهرس

الصفحة

المناجم

كــل شيء كان يبدأ من هناك، وهناك تنتهى كل الأشياء!.. لا يهدأ عم "سيد" لا يهــدأ كان! شارب طيب كان له، ورشة صغيرة فى البيت وألف مهارة فى اليد كانت! لكن كل شيء كان هناك يبدأ وهناك تنتهى أشياء كثيرة.

"داخلها مفقود وخارجها مولود"!.. من نقش العبارة الحكيمة على جبين كل مــنجم؟.. قالــوا لــيس سوى المهندسين الخواجات ذوى البرانيط والبشرة كلســان اللهــب من كوشة الوابور "أبو كباس" وهكذا شيوخ المناجم الكبار يحكــون، يقولــون: ذقــنا من مناجم بلادنا الخوف والذل وغبار الديناميت، وفــتحوا هــم بطون الجبال غصباً واقتلعوا ذهباً وخيراً كان يمكن أن يكفينا الدهــر كلــه، فقط تركوا لنا عبارة على جبين المناجم: حكمة كأنها قهقهة ساخرة لحظة خروجهم مالئى الحجور بالذهب!..

هكــذا تقول الحكايات القديمة.. هكذا كان عم "سيد" يجلس.. يقول: لا يهم، لقمة العيال تهم! يقول الرجال: ربك يسترها!!

... حرك.. يا.. هيه.. غلبتك..!.. أنا برضك " سيد" السيجة يا رجالة!

بين أحجار السيجة العيون تنط، مغلوبة، رغم الغلب تضحك فى يد عم "سيد" الأحجار.. تضحك.. ضحكات الرجال تجلجل، تشخلل.. لصدور رجال المناجم جلجلــة وشــخللة خاصة.. ضباب برائحة الفوسفات حول الشوارب وغبار طفلــة أصــفر يــا!!.. عم "سيد" أكانت فى غبار الفوسفات الضحكة مدفونة

تحاول.. أم.. فى خشخشة الصدر المكلول الراضى؟!:
– يا بن الـــ.. أنا "سيد" السيجة حبيبك ياد!
– طيب بكرة الدور عليك يا "سيد"!! لا يقطع الضحكات.. سوى الهم، دائماً: هــيه.. تصبحوا على خير يا جماعة، أحجار السيجة موعد انطفاء مصباح الشـــارع تعــرف.. ألوان الجبال القاتمة فى عتمة العاشرة تضيع.. تختلط، أصــوات الصـــغار لا وجــود لها الآن، كل الصغار يعرفونها.. قالها "سيد" لصـــغاره: ما دامت أصوات الكلاب من أعالى الجبال حولنا تسمع فلا مكان للعفاريــت.. عفاريت الجبلة السودة تخاف الكلاف!! ناموا هادئين حين عاد فـــيهم تأمــل واحداً واحداً قبلهم، وقالت امرأته: تعال.. ارتح.. قومة الفجر واعــرة والجبل يهد بنى آدم، هذه اللحظة لا أحد يعرفها سوى نساء رجال المـــناجم!.. تحكـــى عــربة الشغل فتقول: حين أقف أمام كل بيت تخشخش عجلاتـــى بـــين الحصـــى والرمال فى شوارع القرية: يحرك السائق لسانى فأزعــق.. يشــق صـــوتى عتمة الفجر آسفاً! تقول العربة: كل امرأة منهن أراهـــا.. يقع عقدها مبعثراً بين يديها على صدرها من رهبة صوت الرحيل، تحكى عربة الشغل أن أبواب البيوت الحجرية حين تفتح يخرج الرجل وتبقى المـــرأة شـــادةً على وجهها طرحتها تمد له يدها ربطة تحتوى على رغيفى خبز وحبات من ثمار الطماطم وبعض الكمون المدقوق، يأخذها بيد ويتناول بالأخـــرى زمزمية ماء ملفوفة فى خيشة تحفظها باردة حلوة، تقول العربة: لا أحد سواى يرى تلك اللحظة حين أزعق معلنة رحيل رجلها عنها إلى بطن الجبل، زاوية فتحة الباب ضيقة.. ملوحة له بيد ورافعة إلى السماء الأخرى،

تقــف امــرأة هناك عند كل بيت تغمغم.. سلم يا رب... سلم يا رب!! ترقب عجلات العربة حين تدوس الأسفلت.. وزحمة الرجال يتخبطون عند اهتزاز العربة فى صندوقها الأغبر! سلم يا رب.. يا رب سلم!!.
حــين تغلــق كــل امرأة بابها عليها تتمنى لو ينقلب نظام الكون، لو تسير الجـبال.. كــل الجبال إلى البحر المالح فتذوب قبل أن يلج الأحباب أفواهها الغادرة.. لو تُضْحِى الساعات لحظات ويعود رجلها!! مغبّراً؟! مغبّراً لا يهم، حافياً لا يهم!! مشقق القدمين؟! لا يهم!
- الماء جاهز يا "سيد"
- كلهــم يســتحمون.. كــل يوم حين يعودون.. تعود الحياة لسيد ولرجال المناجم فتعود لى ولنا نحن نساءهم - هكذا كانت امرأة فى بيتها تفكر.
- أعمــال البــيت قلبها طيب تسرق الوقت السيئ كى تأتى الأوقات الجميلة بسرعة!! أما الصباح فأمره هين.
يمســك الــيوم بــيده فكأنه مع الأطفال إلى المدارس باسماً يسير! ما أحلى صــباحات الجــبال المشمسة لولا غدر المناجم، البيوت نفسها بهزة الأرض تحــس.. حــين يلقــى الرجال جلاليبهم جانباً ويقفون فى بصيص الكشافات وعتمة بطن الجبل بسراويلهم، يصلون طرف الفتيل بقلب المنجم.. يشعلون الطــرف الآخــر ثم يجرون، تهتز الأرض وقلوب النساء حين انفجار جسد الجبل بفرقعة الديناميت.
حــين يعـ د الصـــغار فى فسحة المدارس، حين يقول طفل: اعطنى يا أمى قروشــاً، ل المرأة: خذ!! لا يهم لا يهم، حين يجرى الطفل سعيداً.. تقول

متى يعود أبوك؟!.

تقـــول عربة الشغل فى المناجم: أنا حزينة أقف هنا أمام المستشفى القديم.. الشوارع مزدحمة جداً.. أفواه البيوت مفتوحة على آخرها فى صرخة واحدة مـــرة.. وكـــل النســـاء تجرى، وكأنه السيل الأسود من أعالى الجبال على الـــوادى اندلق!! وبعد قليل سيبكى أطفال فى المدارس!! تقول عربة الشغل فـــى المـــناجم: أنـــا آسفة أرى امرأة "سيد" تبحث عنه كالمجنونة تنبش فى صـــندوقى تفـــتش فـــلا تـــرى ســـوى كومة جلاليب مغبرة وزمزميات ماء مســـكوبة، تقـــول عـــربة الشغل فى المناجم: أرملة "سيد" مسكينة!! لا أحد يعرف هذه اللحظة سوى نساء رجال المناجم.

وأنت تتسكع فى موازاة البحر!

سـيكون المـناخ رطـباً نسبياً، وأنت تتسكع فى محاذاة البحر على الجهة المقابلـة علـى يمين الرصيف.. الزحام شديد والشارع كعقل بشرى ينبض بالـيقظة والتركيـز.. نظام سيئ ذلك الذى خططته الطبيعة للمدينة.. تقول لنفسـك: بـيد أنه من الرائع أن يظل الفرد يقاوم ويغنى ويقهقه فى الشارع الوحـيد المخطـط طولـياً بوسط المدينة، إن نظام الشارع one way ذلك مـدهش وقد يقول الأهل (خطير)، ومع ذلك أنت مستمتع أيها الغلام تخرج مـن شـارع عرضى هناك.. تدفع بيدك عربة صغيرة بعجلات وتصفر لأمك واعداً إياها بزجاجة عطر خليجى وطقم ملاءات مزركشة، وعندما يسألونك عـن اسمك تقول: "الشاذلى"، وتذكر اسم أمك: "فتحية"!، اقفز يا "شاذلى" لا وقت للنفَس.. اقفز يا "شاذلى"، وليلحق بك أبوك الشيخ الخارج من المناجم بإصـابة عمـل.. اقفز يا ولد، صوت صفارة المركب العبارة يزغرد مرقصاً ضـباب الثالـثة صـباحاً، ولما يقول العقل: "الشاذلى" ذو التاسعة لديه ثمة اختـبار غداً.. ثمة اختبار مدرسى يجتاز به المرحلة إلى أخرى.. لما يقول العقـل ذلـك ترد كل الأشياء: لا شيء يضاهى اللحظة قيمة وحظاً.. زغردة العبارة القادمة ترقص بغجرية وغرور على وجه الماء اللامع، من انعكاس أضـوائها غمـزات نجـوم الثالثة صباحاً.. كل الأشياء ترد.. طقم الملاءات المزركشـة لجهاز أختك يا "شاذلى".. ومئة جنيه تعود بها فى ساعات أنت

وأبـــوك يـــا ولـــد ألا تكفـــى للفخـــر.. تقول أمك: مواسم لا تُعوَض عودة المدرسين.. وأيام الفرج حيث تزدحم بوابة الميناء بالسيارات الفارهة وذوى العقالات البلهاء... يحكى "الشاذلى" عنهم ويضحك ويقول: ينزل الواحد منهم كحيوان بحرى أبله وغريب يكاد يتعثر فى جلبابه.. يقول الولد "شاذلى" وها نحن أولاد العبارة نهسهس تحت رجليه وبين يديه كسرطانات صغيرة نهمة ونضحك عليه ونأخذ من كل شيء شيئاً!!.

كـــل شـــيء يـــرد.. الشارع الممتد طولياً.. كجنِّى يبدأ التقافز أولى ساعات الصـــباح.. ويضـــحك البحر بانتصار مزعوم.. سيقول المار المتأمل حينئذ: شخصية البحر ليست سوية!!

ولن يحزن أحد.. ذلك لأن المشهد سيكون مؤثراً للغاية حين يفرد "الشاذلى" حجـــره لإخوته الصغار.. بتفاحات ضخمات ثلاث، ماذا لو علمت "فتحية" أن صغيرها يتسول التفاحات الغريبة من رجل غبى بعقال ومؤخرة سمينة!

ماذا؟ لا شيء!! لا شيء ألبتة!!

تقـــول "فتحـــية": العقبى لإخوتك يكبرون لى ويذيقوننا الحلو مثلك!! وتقول فتحـــية: فاتـــك الـــيوم اختـــبار الحساب لا يهم.. حسبك ما غنمت اليوم يا عزيزى!!

هكذا الأشياء التى حرضتك منذ سنين تذكرك الآن وفى لحظة بكل ما مضى، نفـــس التوقيت يأخذك فى محاذاة البحر.. وزغردة العبارة الكبيرة، كبرت يا "شاذلى".. هجرت زملاء الدراسة منذ أعوام بعد أن عيروك بأنك تكتب اسمك دائماً بلا نقاط.

لم تواتك الجرأة يومها كى تقول إنك لم تكن تمتلك القدرة على التفريق بين كـل متشـابهين من الحروف مختلفين فى عدد النقاط أو مشكلة وجودها – أساسـاً – تضحك الآن من الأشياء يا "شاذلى"، وقد نبت لك شعر فى وجهك ووعـيت لنفسك واستطعت بصدق وذكاء أن ترفع رأسك أمام الجميع وتقول بأن نصف فصل 2 / 1 كان لا يحفظ حروف الهجاء ذلك لأن الأستاذ "بدوى" كـان يهـرب مـن الحصـص كـى يدفع العربة نحو الميناء كى يستجدى القادمـين!!.. هـه.. مـاذا لـديهم عندك الآن؟.. فلتصرخ بأعلى صوت يا "شـاذلى"، وخذ حقك من الصراخ.. ولا تشعر بالخزى!، فالكل لابد أن يشعر بالخـزى مـثلك حينئذ بدءاً من أمك "فتحية" وحتى مدير مدرستك الذى كان يسمح للمدرسين بالذهاب للاسترزاق من الميناء كى يفوز بزجاجة (بارفان) أجنبية!

نعـم إن المناخ رطب، رطب جداً وأنت تتسكع فى موازاة البحر مبتعداً عن الميـناء.. تكره أن ترى والدك شيخ المناجم يتمسح فى العربات الفارهة.. يـروح ويجيء بحقائب حُبلى، ثم يمد يده ويتجاهل رعشة ماء وجهه حين يطلـب شيئاً وشيئاً، تكره أن ترى والدك كما رأيته طوال عمرك حائراً يلتقط مـن هنا ويشحذ من هناك، ويتحمل ركلات وسباب عساكر الميناء فى صبر جميل بعد أن ظل سعر كيلو البطاطس طوال الوقت يرتفع ويرتفع، وها أنت مجبر تمد يدك إلى عينك تمسح دمعتك.. عيب أن يبكى الرجال أولاد البلد.. تقول لنفسك: سيئ تخطيط شوارع هذه المدينة.. بيد أنه من الرائع أن يظل الفـرد يقـاوم.. يغنى ويقهقه.. تعود يا "شاذلى" خافض الرأس، تمسك بيد

أبــيك وفـــى حلقك مرارة كطعم ليمونة قديمة، تنتظر المساء كى يأتى ميعاد عملك الجديد.. هناك حيث ينتهى الشارع الطولى الوحيد بمبان فخمة.. أينما تكون معك البحر يسير يا "شاذلى" هذه المرة يوصلك إلى هناك، وهو خافض العــين خزيان دامع.. ذلك حين يكتشف معك أن يومك كان سيئاً ذكرك بكل شـــيء مضى، وأنك قضيت أكثر من عشرين سنة هراء، وأن أباك قد قضى الكثيــر وأمك "فتحية". وأنك بائس.. بائس جداً حين تقدم (السرفيز)، وترى هناك العجب.. الواحد من بلدك يصرف ألف جنيه فى جلسة مسائية واحدة.. تبتســم له، يطارد مخيلتك وجه أبيك وأمك والبحر ورعشة البرد حين تختلط بزغــردة العــبارة فجــراً، تبتســم له.. فيمنحك خمسمائة جنيه مرة واحدة ويهمــس فـــى أذنك بأن هذه أول مرة يجرب قضاء الصيف فى مصر وأنه سعيد إلى حد ما!.

حارس قروى فى المدينة

حسناً.. لابد أن أعترف..

المــناخ هنا غير مهيأ لأمثالى، فى الشتاء.. هنا.. برودة غريبة تدغدغنى.. بــرودة تدعونى للتأمل لإعمال عقلى.. آه يا عقلى!!. كل شيء هنا يدعونى لإعمــال عقلــى. برودة ليست كبرودة الشتاء فى قريتنا، هناك كانت لسعة البــرد شــيئاً آخــر.. شــيئاً مخدر.. شيئاً لذيذ، شيئاً لا يسعنى معه سوى الاســترخاء بينما يداى ممدودتان على جمرات الخشب المتقدة للتدفئة. ومن حولــى العائلة والأقارب. النساء والرجال والأطفال، وأكواب الشاى القروى الأسود اللذيذ.. آه يا عقلى.. يا لهذه المدينة اللعينة!!

مالــى وهذه الجلسة التى ستقتلنى.. سيرتفع ضغطى.. سترتفع نسبة السكر فى دمى.. آه يا عقلى!!

ها هن فتيات هذه المدينة يدخلن مبنى الاتصالات الهاتفية.. لم تلتفت إلىّ أى منهن، لم تعرنى أيّة واحدة منهن أدنى اهتمام، وأنا قابع بملابسى العسكرية بجوار بوابة الدخول.. أمكتوب على وجهى أننى قروى؟!

قروى قروى وماذا فى ذلك؟!

مظلوم يا ناس.. مكبل يا خلق.. عيناى فى منتصف وجهى.. بندقيتى ممددة على ركبتى.. ركبتاى تعبتا.. آه ركبتاى!!

ســأعد الشــهور حتــى يأتــى موعد انتهاء خدمتى العسكرية بهذه المدينة

الغريبة!!

مواسم مرت على، وأنا هنا مثلى مثل سلة مهملات فى ركن هذا المبنى..

لا.. لا.. أبداً.. سلة المهملات لها وجود عنى، هذا الصباح اقتربت منها فتاة خمــرية رائعة الجمال.. وكأنها بحر هذه المدينة نفسه!! كورت ورقة بيدها وألقــتها فــى سلة المهملات!!، وأنا أرقبها بعينى الضيقتين.. القرويتين.. وهى – أبداً – لم تلتفت!! ليتنى كنت سلة مهملات!!.

الناس يدخلون ويخرجون من بوابة المبنى.. يدخلون فى قلق ويخرجون فى قلــق.. حتــى فتاة هذا الصباح كان موج من القلق الغريب يهدر فى عينيها الواسعتين!!

آه يا عقلى!!

كل شيء هنا مشوب بالعصبية!!

الاسترخاء غير ممكن على أية حال.. التثاؤب مستحيل.. الشرود مستحيل.. خطر!!.

أين أيامك يا أمى؟ أين كوب اللبن البقرى الدسم الكبير؟!!.

أين فطائر الزبد والعسل يا (تهانى) يا ابنة عمى؟!.

أين خوارك يا بقرتنا، كان يشعرنى بالراحة.. كانت البقرة حين تخور أتذكر علــى الفور أن لى بقرة وقطعة أرض.. من الأرض آكل ومن البقرة أشرب وآكــل، أشــم رائحـــة اللبن حين تخور البقرة وعلى الفور أتثاءب وأشعر بالراحة، بالنعاس.. الشعور بالنوم..

والصــيف، والصــباحات، العصارى.. النخل، أشجار الصفصاف .... يا

عينى!!
هناك.. لا شيء يدعوننى لهذا القلق.. لهذه العصبية الغريبة البشعة... حتــى الصــيف هــنا قلق.. أزيز آلات التهوية مقلق.. العرق الرطب على الأذرع العاريــة مقلق... رائحة الليمون المثلج فى الأكواب.. هنا.. مقلقة، طعم أحماض (الستريك) الحافظة فى الأطعمة المعلبة.. هنا.. مقلق!!.
وهكــذا كان (علوان) جالساً.. متخذاً وضعه المعتاد على بوابة (السنترال).. ورغــبة كبيرة فى النعاس تداهمه.. أخيراً وضع يده فى جيبه وأخرج ورقة مكرمشة راح يشمها خلسة.. حتى أنه خيل إليه أنه الآن فى قريته حين فتح الورقة وراح يقرأ: اشتقنا إليك يا (علوان) أمك وإخوتك وكل البلد.. يهدوك السلام يا بنى.. ناس عمك خاصة يهدوك السلام.. شد حيلك.. عايزين نفرح بين أنت و (تهانى) بنت عمك..
ترجع لنا بالسلامة يا بطل.. أبوك الحاج / جامع علوان..

تكتموا الأمر

كان يرى قدميه الصغيرتين تعودان قبيحتين جداً إذ تظهر بقع الطفلة الفاتحة اللون على البشرة السوداء الخشنة، كانت حجته الدائمة أنه ذاهب إلى هناك فى انتظار إياب والده العائد من المدينة.. يترقب ظهور عربة (جيب) هابطة عبـــر الطــريق المتعرج، وهكذا فى كل مرة كان يفر من يد أمه نحو شرق الــبلدة كـــى يرتقى التلال ويمط رقبته الصغيرة، أكثر ما كان يحبة يد والده الســـوداء حـــين تمـــتد داعية إياه للقفز داخل العربة (الجيب)، يرفع جلبابه المخطــط ويقفز بجوار أجولة السمك المبتلة، بينما العربة تأخذ طريقها بين الحصـــى كقــوقعة أليفة، يهتز جسده الصغير ليلتصق بجسد أبيه.. الملابس على جسد أبيه ما زال بها القليل من البلل.. رائحة اليود والسمك.. الروائح أيضاً قادرة على تشكيل ذكرى جيدة وقادرة على البقاء فى مكان خفى عميق مـــن الـــروح.. الســـنوات الأولى من العمر طرية ولذيذة ولطالما أخذه أبوه وجلـــس بـــه بين الرجال.. الحقيقة الأولى التى تأكدت لديه أن عائلته كلها ســـوداء البشـــرة، لـــم يكن الأمر مؤلماً فى البداية.. كانت الوجوه السوداء لامعة بالضحك والخير، المعلومة الجديدة التى أدركها أول سنوات المدرسة الابتدائـــية كانت مؤلمة ومخزية حقيقة.. مؤلمة ومخزية وظالمة كانت، بدا الأمـــر كمـــا لو أن مجموعة من الجراء يجب حشرها معاً وبشكل ظالم فى الصـــفوف الخلفـــية.. كـــان الأولاد والبنات الآخرون يحلقون فى الوجوده

الســـوداء بدهشـــة ويتهامسون.. كلهم فعلوا ذلك.. كلهم ما عدا (نورا) لذا حـــيث كانت العربة تتحرك على الرصيف القديم فى اتجاه غرب البلد.. كان (نـــوح) يفـــتح فمه بأسنان بيضاء يبتسم فى سعادة.. فى لحظة مثل هذه لا يجـــب إطلاقـــاً الاستهانة بشرود طفل صغير.. إن رائحة البحر النائمة على صـــدر ملابس أبيه حتى ذلك الملح الذى ترسب على وجه الأب، على كفيه وقدميه، تلك البقع الملحية الجافة على جسد أبيه الأسود، كل ذلك.. الروائح والألوان.. صوت كائن جبلى يمر لحظتها متخفياً فى التراب الأصفر الناعم.. عناصـــر اشـــتركت فى استكمال لوحة زمنية سعيدة فى عقل (نوح) الصغير وهى فى كل مرة توجه عينيه وبقوة نحو البيوت القائمة على التلال فى أول الـــبلدة.. (نورا) البيضاء هناك واقفة تستند على سور الحديقة الصغيرة.. لا فرق أبداً فى اللون بين بشرتها وياسمين حديقة المنزل.. هذه هى السعادة.. جـــنة الله فـــى شرق البلد.. فى شرفة منزل أمام مسجد البلدة، ابنته (نورا) بيضـــاء لطـــيفة لـــم تـــبحلق فى وجهه وفى يديه السوداوين كما فعل باقى العـــيال.. وحـــين يتفكر الولد فى ألوان الجبال المحيطة يزداد عجباً إذ يبدو الأمـــر كما لو أن الله وزع الألوان على الجبال فى توافق مدهش مع ألوان البشر ساكنى سفوحها.. إذا انقسمت الجبال فنتين فجاءت السوداء منها فى غـــرب الـــبلدة حيث الصيادون أجداد (نوح) أما البيضاء فقد أرساها الله فى شـــرق الـــبلدة هـــناك حيث تتورد التلال وتستدير كانت (نورا) فى أحد تلك الأكـــواخ الجمـــيلة ذات الطراز الأوربى، وهناك تحديداً كان يقف (نوح) منذ أكثـــر مـــن خمس عشرة سنة يدعو البنت التى لم تبحلق فى وجهه الأسود

للعب معه، أحياناً يكون الكبار قساة وظالمين ذلك ما قرره (نوح) كلما تذكر المهانـــة الجســـدية التى طالما تلقاها على يد أبيه وأعمامه، كان يحدث ذلك كلمـــا حمـــل العلبة الصفيح الصغيرة التى بها ماء وقواقع وسار نحو شرق البلد يلعب بها مع (نورا) تحت سور حديقتهم، التعامل مع الجسد بهذا الشكل كـــان ظالمـــاً ولـــم يكن بالشيء المستحب على أية حال إن (نوحاً) الآن فى جلسته المنعزلة آخر البلدة يعانى الكثير الكريه المتعلق بجسده الأسود، الآن وبعد كل هذه السنوات يدرك (نوح) أنه مازال أبله كدهشته الكبيرة أول مرة راقـــب فيها وجه (نورا) أيام شم النسيم كان البقاء فى البحر لأكبر عدد من الساعات متعة، وكان وجه (نورا) يصبح مثل لون زعنفة وردية حين يدعكه ملـــح البحـــر على عكس وجهه الذى يجف الملح على ثنياته فيصبح مزيجاً غير مستحب من السواد والبياض، ذات مرة بكى أمامها وقال إنه يكره هذه الألـــوان، لـــولا إنها ربتت يده بيديها واقترحت عليه أن يغسل وجهه بالماء الحلـــو، يومها أخبرته أن بشرته ذات لون جميل، كانت الكائن الوحيد الذى أخبـــره بذلك، الأمور الصغيرة قد تشب لتصبح أكثر جدية مما نتصور، أول مـــرة حلـــم فيها بالزواج من (نورا) كان طفلاً لكنه أرعب جدته التى بادرت بقرصـــه، أخبـــرته أنـــه من المستحيل زواجه من (نورا).. إنه ليس أبيض مثلها!!.

أبوه أيضاً ردد هذا الكلام منذ أسبوع حين تشجع وصارحه بالأمر.. كان من الممكن أن يرفض أبوه مجرد المناقشة لكن (نوحاً) كان مقتنعاً حين أخبر أباه أن الأمـــر الآن مخـــتلف تمامـــاً.. إذ كـــيف، يرده أهلها وهو الشاب المتألق

مهندس المناجم طيب القلب مع العمال الكادحين قال: إن الكل سيزكينى وأننا بلـد متحضر!، أما هناك فقد تم كل شيء ببساطة شديدة هناك جلس الرجل وفـتح فمـه فـى تـذلل وقال: يكون لنا الشرف لو وافقتم على ابننا زوجاً لابنـتكم! الأمـر اختلف تماماً فى لحظة، أم (نورا) البيضاء التى كانت تحب أمـه لم يتكشف حبها لها سوى عن شفقة، نظرة من أعلى إلى أسفل.. أمام حديقـة منزل إمام المسجد وقفت أم نورا وقالت: الحقيقة إن ابنتنا مخطوبة بالفعل لأحد أقاربها! هذا بينما تنحنح أبوها وهو يربت ظهر الأسود ويقول: لن نجد خيراً منكم، لكن.. أعطينا الكلمة لرجل آخر!!.

بعـد عـودته للمنزل لم يتفوه بكلمة، ظل صامتاً وهو يرص عدة الصيد فى الجـوال، سأله (نوح).. لم يرد.. كان يفرد خيوط الشبكة، ثمة بقايا خضراء هلامية كانت بين الخيوط مد أصابعه ينظفها.. جاءت امرأته بكوب الشاى ثم انشـغلت هى الأخرى.. كانت الملابس التى خرج بها للبحر هذا الصباح قد جفت على الحبل بجوارها فراحت تنفض عنها رمال البحر الناعمة.. اقترب (نـوح) أكثر، كان هذا الصمت قاتلاً وبشعاً.. استمر الرجل ينظر نحو ضوء اللمـبة الخافـت، رفـع كوب الشاى إلى شفتيه.. قال كنت متأكداً أنهم لن يوافقوا!!.. قال: لو رأيتهم.. لو رأيت المرأة البيضاء، لو رأيت وجهها وهى تقـبل أمك، كان الأمر مثل عار لحق بها، ودت لو تقول لنا: تكتموا الأمر!، ودت لو صفعت أمك على وجهها الأسود!.

الجبال السوداء فى غرب البلد تغرق فى الظلام حظها قليل، لونها الأسود لا يتـيح لهـا أبـداً إمكانية التباهى فى المساء، هكذا جلس (نوح) الآن متكئاً

بظهـــره إلـــى التل الصغير، هكذا كان يفكر (نوح).. اللهجة التى حدثته بها (نورا) عبر الهاتف جعلته يكره كل الألوان، كانت غرفة الهاتف الوحيدة فى الـــبلدة، كـــان هـــناك جمع كبير من البشر.. بينما هو يصرخ: أنت كاذبة!! ارتعشـــت هى من هناك، فى الحقيقة أنه سمعها تبكى، قالت له: ربما يكون هـــذا آخـــر أحاديثنا لذا لا تضطرنى إلى اختيار صعب، لا أحب الكذب عليك، لكـــن للأسف أخبرنى والدىّ أنه كان التعلل الوحيد أمامهما.. لم أخطب لأحد ولـــم يـــرغب والـــدىّ فى............، فى اللحظة التى قطعت حديثها فيها ووضـــعت سماعة الهاتف نظر (نوح) إلى يده السوداء كانت سوداء بطريقة مُلفتة، بحنان مَرَضى تلمّس (نوح) سماعة الهاتف الأبيض ثم خرج، كان لا يريد النظر إلى أى عضو من جسده لذا فضل أن يسير فى الطريق المظلم.. إنـــه الآن يكره قميصه وبنطلونه اللذين يرتديهما، مؤهله الدراسى الذى لم يفلـــح فـــى تزكيته، الآن هو يكره الألوان كلها، لماذا اتحدت الألوان مكونة اللـــون الأبيض؟، ليتها لم تتحد، هو الآن يكره تحللها واتحادها، يكره قوس قـــزح و (اســـحق نيوتن) كل هذا الغباء الذى يعربد فى أذهان البشر، جدته كانـــت شجاعة، صارحته، صرخت فى وجهه: لن يرضى بنا أحد، لن ينسى أبـــو (نـــورا) أن أجداده كانوا يشترون أجدادنا وكنا عبيداً لهم، هذا الوقت متأخر من الليل ومن الشهر، ضحك (نوح).. ضحك بأسنان بيضاء برقت فى هـــذا الـــوقت المتأخـــر من الليل، ذلك حين تذكر أبطال الأفلام العربية قال لنفســـه: فـــى مـــثل هـــذه المواقف أتصور أن يسير البطل حزيناً يغنى بين الجبال.. ظل (نوح) لحظات يفكر... أخيراً طوح فى الهواء حصوات صغيرة

كانـــت تملأ راحته... قال: وما جدوى التفكير إن ظل الأمر هكذا مجرد ثورة حمقـــاء نمـــوت بهـــا كمداً؟؟ كم (نوح) يعير بلونه وأصله فى هذه البلدة؟؟ ولمــــاذا لم يقف أبوها إمام المسجد – رجل الله – محتضناً أباه مرحباً به؟.. لمـــاذا لــم يقف أبوها هناك ليعلن للناس أن الله أعطانا العقل كى نفكر به؟، لماذا لم يمد يده البيضاء ليصافح يد أبى السوداء؟.. الآن وفى ليلة كهذه فى آخـــر الشـــهر لـــم يكن القمر شجاعاً بما فيه الكفاية كى يكشف عن حقائق الطبيعة من حوله.

أحياناً يبكى الحنين بداخلنا كطفل يحتاج منا أن نشبعه بنفس طريقتنا القديمة ذاتهـــا، فـــيما نظر (نوح) إلى حذائه اللامع تذكر فى الحال قبقابه الطفولى البلاســـتيكى الممـــزق الذى كان يجرى به نحو شرق البلد، قدماه المتعبتان باللـــون الأبـــيض كانتا تبدوان قبيحتين لكنهما كانتا تبهجان (نورا) أما الآن فقد شعر (نوح) بالألم الشديد...

لا أحد يشعر بآلامك يا (نوح)...... لا أحد.

لحظة

كانــت تدنــو للمغــيب، لــم تكل المرأة العجوز من التجول تحت العمارات المختلفة..

بصــوت جــاف يمــيل إلى الخشونة، كانت تصيح رافعة إلى أعلى مُحَاقى ومضــتين فــيهما بقايا جمال عزيز: عندك عيش يا ستى.. عندك عيش يا أبلــه! شــيء مــا يوحى للناظر إليها بالخوف منها لعله الجفاف البادى فى ملامحها أو لعلها طريقتها فى الإمساك بالعصا تحت الخراف على السير من مكان لآخر!.

منظر الخراف جميل لكنه يوحى بشعور غريب، بعضها بنى بحمرة وبعضها أسود يميل إلى الرمادى والبعض الآخر أبيض شاحب من كثرة ما حمل من أتــربة وغبار.. حين جلست بين النخيلات.. راحت تفك صرة خبز تحمل ما جمعــت من خبز جاف تحت الخراف على التَّقوت منه، وتطعم الصغير منها بنفســها، المــنديل الأســود الذى تعصب به رأسها يبرز جزءاً من شعرها الأكرت القصير شيء ما يدعوك للجلوس معها!.

شــيء مــا يوحى لمن يراها لحظة – يدرك – أنها تفكر وأنها لم تعد تخاف الغد!

تمسك بعصاها تخط على الأرض بها خطوطاً أمامها ثم تتأملها فى صمت ثم تروح فى تفكير عميق.. تغرق.. لا يدرى أحد فيما تفكر!

لكن الشيء المؤكد أنها – بين خرافها – تفكر!.

ربما لو كان لدى قفاز صوفى

الجيران الذين كنت أكن لهم حباً خاصاً.. والذين كنت أهفو إلى التقافز داخل عتـــباتهم ولـــو بشـــبر واحـــد.. كان معظمهم.. فى الأغلب.. هؤلاء الذين يدعـــونهم أهلى (المنحلين أخلاقياً)! كان يوماً رائعاً ويستحق قبلة على خده الأيمـــن ذلك اليوم الذى أستطيع أن أختفى فيه خمس دقائق.. خمس دقائق فقط.. أتسكع فى الجوار، وبالأخص عند المنحلين أخلاقياً.. كما يدعونهم!
هـــذه البـــيوت المحرمة بلا وجه حق.. المغلقة على الأسرار المشاعة الألق المرعش المثير، هذه البيوت الساخنة الجدران الدافئة الوهج الشفيف كانت بواباتها كالسحر تشدنى، كيف سأخرج إلى بيت الخالة وهيبة؟.

كيف.. كيف؟.

كـــنت أســـأل نفســـى بل كنت أحقن نفسى بالسؤال فيما مدرس نحيف بزى صـــوفى شاحب غبى ينز فى فراغ الشتاء البارد، كان يردد برتابة مستفزة: جامعة الدول العربية و... و...!

كيف.. كيف.. كيف؟.

البـــنت الســـمينه بجوارى قرصتنى، لم أحس، قرصتنى مرة أخرى وداست قدمـــى، أحسســـتُ بهـــا.. كـــنت سأرد لها قرصتها الحادة لولا أنى تبينت إخلاصـــها.. كان المدرس النحيف الشاحب واقفاً أمامنا وفى يده عصا تمتد مـــن يـــده إلـــى البحـــر.. كان يسألنى بفتور: أذكرى أسماء الدول العربية

الشقيقة؟!.

قلـــت: أ.. أ.. أ..، قلت: الحقيقة لا أعرف!، قلت: الحقيقة.. لا أحب التربية القومية هذه!.

كـــان الشـــتاء بـــارداً وشديد القسوة كعادته يشد جلد كفى.. جلد كفى بارد وأصـــفر.. ضـــربنى علـــيه، قلت: ربما لو كان لدى قفاز صوفى مثل البنت الســـمينة بجـــوارى، ربما لم يتمكن من الإمساك بجلد كفى ساعتها.. حظى السيئ أنى لا أمتلك قفازاً صوفياً!!

.. كانت خلايا مخى تعمل فى تنظيم دقيق بالغ الإعجاز كى تجد طريقة أنسل بها من بين لداتى خارجة من بوابة المدرسة.. أدوس رمل الحارات الضيقة، ليس إلى بيتنا بل إلى بيت الخالة (وهيبة).. المنحلة الأخلاق!!.

لـــيس هـــذا فحســـب بل إن موقعى بجوار النافذة جعلنى فى مواجهة الجبل تمامـــاً، كـــنت أترقب ظهور صغار الغزلان تفر فى دفء الشمس خلسة ثم تـــركض عائـــدة، فى البداية كانت تجيء كلبة وأولادها يتمطون فى شمس الشـــتاء الدافـــئة.. يلعـــبون.. يمرحون.. ثم يختفون خلف إحدى انحناءات الجـــبل.. مـــرة أتذكـــر قصص الأولاد جيراننا عن العقارب التى تظهر على الهضـــاب مـــع ظهـــور القمر كل مساء فيتبارون فى صيدها وبيعها للوحدة الصـــحية ومـــرات كثيرة أتذكر فى شوق قصة قديمة عن (سميرة) والفتى (عمَّـــار) الـــذى جن بها وكان يُقَبِّلها عشية كل يوم خلف الجبال! والمدرس الشـــاحب اللون كنت لا أصدقه، كان من الأفضل له أن يجد لى طريقة أدخل بها بيت الخالة وهيبة بدلاً من هذا الذى يقول!.

مـــرة كنت سأقف وأراهنه إن كان أحد يفهم شيئاً!! مرات يشتم ذلك المدعو (السادات) ومرات يشتم ذلك المدعو (عبد الناصر)!

ولم نكن نعرف بالضبط ما الحقيقة.. لم يكن يفعل سوى تشويش عقولنا فيما كـــنا نحن نحس أنه هو مشوش أصلاً وغير واثق حتى من دقات قلبه، كان يفـــيض عـــرقاً وهو يمسح عينيه من غبار الطباشير ويمسح يديه ويتناول ســـاندويتش الفول!! وذات يوم لمحناه يلعن ويسب بصوت مكتوم ثم بصق على الأرض بجوار حذائه... حدث هذا أثناء تحية العلم فى طابور الصباح!!

و...... أخيراً.. أخيراً وجدت طريقة ذكية.. ذكية رغم خطورتها!.

خرج الجميع فاعتليت المنضدة وقفزت من النافذة، بعد لحظة كان جسدى قد تاه بين جموع أجساد الصغار الخارجين من المدارس، والعمال العائدين من المناجم.. و....... أخيراً أنا هاربة من الجميع حاملة حقيبتى.. لمحت طرف كمى الصوف الأحمر المتهرئ يبين من تحت كم مريلة المدرسة، كنت أكره ذلك، مثل كل مرة، ركنت حقيبتى.. أخرجت موسى من مقلمتى.. أعملت كل جهـــدى وطاقتـــى وقطعت طرف الكم الصوفى الأحمر المتهرئ.. رميته ثم واصـــلت طريقـــى .. خطـــوتان.. طاك.. طاك.. فتحت لى الخالة (وهيبة)! شممت رائحة الخبيز، فيما بدت الخالة (وهيبة) فاتنة للغاية.. جلبابها الأحمر المنقوش بالزهر الأبيض أضافت إليه زهراً أبيض آخر بنتف العجين الكثيرة التـــى التصـــقت بـــه هنا وهناك، كماها المرفوعان أفسحا المكان لذراعين أبيضين جميلتين والتصقت نتف العجين بحلى ذهبية فى ذراعيها وأصابعها. قالـــت: مـــرحباً (سلمى) تفضلى يا حبيبتى!! ودخلت أتعثر فى طرح النسوة

وأفخـــاذهن فـــيما حمامة مقصوصة ريشها مرقت بجوارى.. وآثار الدقيق ونخالة على الأرض الأسمنتية النظيفة، كانت (وهيبة) تخبز الكعك استعداداً لزواج الابنة الرابعة.

أعطونى كعكة صفراء وكوب شاى!!

جلست أقضم الكعكة وأراقب النسوة والخالة (وهيبة)!!

الخالـــة (وهيبة) كانت أصدق من الجميع، من الآخرين الذين يحذروننى من بيتها ومن المدرس الشاحب وهى جالسة بثقل وبثقة أمام نار فرن الخبيز.. خــداها كانـــا مـــثل جمـــرتين وهى تخرج صوانى الكعك وتناولها لأخرى.. تفـــرغها الأخرى بدورها على ملاءة مفروشة بجوار الحائط.. كانت الكعكات الطازجات تضحك فى فرحة و (وهيبة) أيضاً كانت تتمايل مثل صبية تضحك ثم تزغرد معلنة عن فرحة.. فرحة حقيقية!

البـــنت العروسة كانت تلبس فستاناً أعلى ركبتها يرتفع.. حين تتجلى الفرن بـــنارها ونـــورها تشرق سيقان البنت بالدلال وتتفجر بأسرار نشبة غامضة مقـــبلة، وهـــى تتبختـــر أمام أمها تروح وتجيئها بصوانى الكعك النيئة فيما المـــرأة – الأم – الصبية – تضرب فخذ ابنتها بخفة الفرح وتزغرد! بالطبع هـــذا هو الذى لم يكن يعجب الآخرين.. إنها (وهيبة)!! (وهيبة) التى نسيت حقـــيقة عمـــرها وفـــرحت وراحـــت تلبس الأحمر المنقوش ولا تترك على ذراعيها شعرة واحدة.. يقولون عنها فى حقد مكتوم: (وهيبة) طوال النهار تـــرقص وتزغرد وتتهامس مع صديقاتها الداعرات حول أسرار الفراش فى غـــرف العـــرائس.. ضـــحكت وأنا أقضم آخر جزء من كعكتى وأمسك كوب

الشـــاى بـــيدى.. كـــان الآخرون يحبون المرأة التى تجلس فى صمت غبى تمسك بمنديل مطبق صغير وتشد جلبابها طوال الوقت بقلق مرضى، تهمس بأزيز مستفز شاكية أيامها.. تماماً مثل مدرسنا الشاحب حين يتحدث ويشتم ويبصـــق فـــى ســـره!.. أما أنا فقد كنت طوال الوقت معجبة بنكات الخالة (وهيـــبة) وضـــحكات النســـوة من حولها، لم أكن أفهم شيئاً سوى أن هذا الهمـــس المحذور صادق جداً، وهذه النكات وهذه الضحكات التى تعلو فجأة وتحمـــر الوجوه – تمس النفس بعمق وبصدق ودون قيد ولا زيف.. مثلما كـــنت أفـــر هاربـــة بحذائى وحقيبتى وصوت الخالة وهيبة: مع السلامة يا (ســـلمى) يا حبيبتى!.. والشوارع قد خلت.. وكل مرة تظهر لى العصا التى تمـــتد حتى البحر.. ألعن هذا الصقيع الذى يغلف الجبل كل ليلة.. تظهر لى الخالـــة (وهيـــبة) فى حلم جميل تمد لى يدها بقفاز صوفى، ثم أرانى أدوس العصا بحذائى فأكسرها!

أستيقظ فى الصباح فأجد يدى صاقعة ثم اكتشف أنها بلا قفاز.. لا قفاز.

الموءودة

فى المندرة الواسعة الرجال منكسو الرؤوس وآخرون تغلى الدماء فى مُقلهم وأصوات النائحات طبول حرب تُقرع وهى مازالت مختبئة والجد ثائر هائج وأكوام من الطين على وجه الأم.. على جلبابها الأسود.. على طرف طرحتها تعض.. ككلب جريح كانت، ومحبوسة هى وبطنها والسؤال الحبيس قد خرج فى الهواء مفرقعاً.. سوطاً يضربه الجد الهائج فى الهواء فيحدث فرقعة يضحك منها الشامتون فى سرهم وتضحك منها الشامتات فى عدودة العار!

– "لم يلاحظوا هم!" – قالت فتاة كانت قد لاحظت لكنها لم تكن تملك سوى الصمت!.

عندما ولدت كانت كباقى الإناث الصغار وبطنها الصغير، عندما ثاروا عليها ولم تعرف لثورتهم سبباً، عندما أحكموا عليها حصاراً قاتماً، عندما قالت لها إحداهن: كبرتِ وصرتِ عاراً دون أى ذنب جنته!

لم يلاحظوا لكن بطنها كان قد ارتفع كثيراً!، عندما سلبوها دم وجنتيها وراحوا يلونون به كل نظراتهم إليها، وكان وجه خالها وأبيها وجدها دائماً مسوداً لا تدرى لماذا.. ازداد بطنها ارتفاعاً!

عندما أضافوها إلى الزريبة فى ساقية تدور منذ بصيص النور الأزرق وحتى يغشى الظلام أجران القمح.. تنام.. تستلقى جثة لم تُمنَح حتى حق

الـــبكاء، هـــى لم تبكِ يوماً لكن الدموع فى بطنها كانت قد احتجزت فزادته ارتفاعاً!.

لم تعرف هى سوى الصمت لذا لم يلاحظوا، وعندما لاحظوا كانت قد ارتوت من سراب فأهدروا دمها الذى نسوا أنها لم تُعطَ حق امتلاكه يوماً!!.

رائحة المطر

واســتمرت تحكـــى.. قالت: "المناجم" تأتيها ثانى أيام الشهر.. قالت: بلدكم بعــيد.. نمـــر علـــى نـــاس البحر - الأول - وضحكت. كانت أمى بجوارها واضــحة الــنحافة، لكن وجهها بدأ متكلماً بضوء ترفع وهى ترفع صوتها والمرأة تقرب أذنها المخبأة الصغر تحت غلالة سوداء قاتمة تزيد من بياض جمـــيل، واستمرت تحكى.. وهى تفك الصرة البيضاء الكبيرة المصنوعة من القمـــاش الخام، وتفرد أمامنا القماش الملون، قالت: "فوسكوز" من الأصلى، وقماش للعرائس!

كانت ترفع صوتها فيما يشبه الزعيق، وظهرها إلى الباب الخارجى الموصد، كانت - بهدوء - عيناها تنتقلان ما بين صالة البيت الأسمنتية اللينة وعينى أمى فى تردد لا يخلو من ترفع، وقطع القماش التى كانت بين أناملها تنزلق فيضـــيع شـــكل طيتها الأولى.. فى مهارة عجيبة تلفها إلى شكلها الهندسى الأول، قالت: إن المطر كان شديداً ليلة أمس.. ماذا فعلتم؟!

... وقالـــت لأمـــى: ما رأيك فى القماش يا شيخة العرب.. خذى ما شئت.. العروس كبرت (وأشارت بحنو إلى بباطن كفها).. اقتربت منها زاحفة (ربما تمـــنت مثلما تمنيت أن تحتضن بكفها الحلوة البيضاء خذى) ضحكت بخوف من أمى وأنا أسألها عن "حمدى"!

كان خدى بلون الشفق وأنا أدفن ركبتى الصغيرة تحت صرة القماش الكبيرة

كى اقترب منها لكنها لم تسمعنى.. سمعتنى أمى التى غادرت الصالة الرطبة إثــر تشـممها رائحـــة كوبى الشاى اللذين وضعتهما منذ دقائق فى الكنكة الصـــغيرة على النار، اقتربت أكثر، واعتليت الصرة المفرودة بكل قماشها.. لـــم يهمنى.. كانت تعرف فتركتنى أعبث بطرحتها أزيحها عن أذنها البيضاء الصغيرة وقرطها المدلى بشخاليل كثيرة كثيرة وحلوة.. قلت هامسة خائفة: أيـــن "حمدى"؟ ضحكت وقبلتنى بقوة، وجهها السمنى يكن وفرة من لبن فى فخار أحمر.. قالت عيناها: إنه قريب!.

همـــت بالكلام حين دخلت أمى بكوبين من شاى ورائحة سكر ساخن وبخار وبعـــض الكعك الأصفر المدور، وبسرعة وضعت أناملى على فيها: لأنها لا تسمع جيداً كنت أعرف أنها سترفع صوتها.

قالت أمى: الشاى يا "غالية".. الشمس اليوم طالعة، قالت إن الأمس كان يوم الخبيـــز وأنــــه كــــان يـــوماً اشتكت منه للجبال والسماء والطير الحاد الذيل المنتقل بين الصخور.. واستمرت تحكى و "غالية" ترشف الشاى: فى المرة السابقة بعدما غادرتنا رسمت عينيها كما هما كنجمتين فى كراسة المدرسة وملأتهمـــا باللون البنى المتقد، وكتبت تحتها: عيناها حلوتان جداً وصدرها ممتلـــئ بحـــبه "حمـــدى" وتضمنى عليه حين لا تكون أمى موجودة.. كتبت تحـــتها: "غالية" أم الخمسين سنة حلوة وطيبة.. حمدى أيضاً يشبهها! أين "حمدى"؟!.

نظـــرت وأنا أزق ركبتى الصغيرة تحت صرة القماش الكبيرة، آخر مرة جاء فـــيها أعطيته قلماً رصاصياً يرسم باللون البنفسجى وورقة بيضاء كبيرة..

لمحتنى أمى ونهرتنى.. سمعتها "غالية" فصمتت، كانت أمى وجاراتها يقلن: الحلـــبة شحاذون وجوههم باردة!! ثمة خشخشة بالخارج كانت، وأنا أكنس الملح المترسب على رطوبة الصالة والجدران بعينى.. كنت أكنس كل شيء وأتنصت لتلك الخشخشة، جاءت من خلف الباب المرفوع قليلاً منتفخة البطن من الشارع نحو ظهر "غالية" قادمة، صرخت وأنا أشد "غالية". التى أحبها.. قالــت أمـــى: العقـــارب الملعونة تطلع على رائحة المطر رغم برد الشتاء، رفعت "غالية" شبشبها الأسود وفقأت بطن العقرب.

أنـــا أخـــاف مـــن شواربها وذنبها – قلت "لغالية" فاحتضنتنى واقفة طويلة ممتلئة بجسمها الدافئ الطيب، قلت: هذا الصباح أحبه لكن أين "حمدى"؟!. كـــنت أشعر بكفى الصغيرة باردة حمراء وأنا أرفعها مفقوءة: دوماً لا أجيد اللحـــاق بها.. أسمع خشخشة شواربها فأصرخ بدموعى منادية من يقضى علـــيها بحجـــر أو غيـــره.. تخبرنى أمى دوماً إنى جبانة أكثر من اللازم.. يضحك إخوتى على ويقتلونها! أكنسها على ورقة من الكرتون وأنا أفكر فى "حمـــدى" شـــعره الأسود الناعم وخديه الناريين وعينيه البنيتين مثل عينى "غالـــية" جدتـــه الحلـــوة.......... واســـتمرت تحكى "غالية" ممسكة بنوتة الحســـاب، تقول لأمى: خذى كل ما تريدين يا شيخة العرب واتركى الحساب لتساهيل الله! حملتها أخيراً وفتحت الباب الخارجى الذى ابتعدت عنه "غالية" بظهـــرها قلـــيلاً: كـــان مقبضه لزجاً..، وجدتنى فى الشارع خلفه ووجدت "حمدى" خلفه أيضاً بجوار العتبة الخارجية يلعب بتركيز فى الحصى والرمل الـــرطب.. وقعت من يدى الورقة، فابتعدت هاربة وجلست بجواره أرتعش،

قـــال إنـــه سوف يدخل المدرسة العام القادم مثلى، قال إن له خمس سنوات مثلـــى لكنه لا يخاف العقارب الميتة ولا الحية!، أمسكها بيده وألقاها بعيداً، كان دوماً وجهه قوياً وساخناً عكس ما كانت تقول أمى!! وكان وجهه أحمر متجمداً من رطوبة الحائط الذى يستند عليه بظهره وشعره يهبط أسود ناعماً علـــى وجهه ووجهه ثملاً كان، فيه كثير من غجرية وكثير من رقص، رفع يديـــه مـــن بـــين الحصـــى والرمال، رفع وجهه.. قال إنه رسمنى باللون البنفسجى وقال: لولا جدتى "غالية" لأحضرت الورقة التى بها الصورة، قال: جدتـــى أمرتنـــى أن أنتظـــر هـــنا فى الشارع ولا ألعب معك كى لا تضربك والدتك!.

مـــر فـــى الشارع أمامنا رجلان، ومعزة مرت خلفها سخلة صغيرة تلتهمان الأوراق مـــن الشـــارع فى صوت مسموع، وكلب عجوز هادئ مبتل يسير ملتصـــقاً بالجـــدران، وبـــاب بيتنا يفتح فجأة.. وقفت امرأتان على العتبة: حمامـــتان فرتا فزعتين.. ابتعدت عنه وابتعد هو ناحية جدته..!!، واستمرت "غالية" على الباب تحكى.. وأمى فى يدها قماش جديد.

انفلـــت "حمدى". فجأة جاءنى يهمس: هل تعرفين جدى؟.. أنا رسمته (ضحك بـــوجهه الغجرى القوى) وهو يقول: جدى لأنه كبير دائماً يضربنى، بالأمس ضـــربته كثيـــراً حتى طار فوق الجبل ثم سقط فى البحر، كنت منتبهة تماماً وأنـــا أتخيل جده هكذا وأضحك.. كان هو أيضاً يضحك بوجه أحمر، قلت له: إنـــى أحب الجدة "غالية" وأحب عينيها، قال: تعالى نلعب بالرمل المبتل!! كنا قـــد نســـينا، ورائحة المطر أصبحت فى الرمل الرطب تحت أقدامنا الصغيرة

العارية، وسخلتان أخريان مرتا تقفزان فرحتين بالشتاء الرقيق، إلا أن أمى نادتنـــى وخالتـــى "غالية" نادت "حمدى" أحببت وجهها: كان وجهها بحلاوة المانجـــو وهـــى تقبلنـــى وتضـــحك، ثـــم تـــرحل بصرة القماش الكبيرة و "حمـــدى"........، ولـــم أحـــب وجه أمى حين أغلقت الباب وقالت: إياك أن تلعبى مع هذا (الحلبى) مرة أخرى، أو تعطيه قلماً ولا ورقة.

قالت إنهم....................

وإننا.........................

.... واستمرت تحكى.

رسائل قصيرة إلى " أمل "
" التى أوحشتنى كثيراً "

حـين أنظـر إلـى الجدران.. الجدران القاسية من حولى، أحاول أن أتنفس الهـواء.. الهواء ليس حراماً أن نتنفسه!.. أقسمت لهم على ذلك ثم جلست وحـيدة مـن جديد، الحجرة تتسع وتتسع.. الجدار ليس هو الجدار.. على الجـدار صـورة كبيرة.. صورة زوجى الحبيب (يوسف).. ماذا فعلوا بك يا (يوسـف)؟.. ماذا فعلوا بك يا قرة عين (سلمى)؟! إنه يحطم الجدران وإطار الصـورة ليخرج إلى ويهمس: (سلمى) أيتها الفارسة أحبك.. أحبك.. أحبك وسأسـتعيدك يوماً يا حبيبة عمرى، كل ليلة اكتب الرسالات لابنتنا (أمل).. كـل ليلة اكتبها من جديد ثم أبدأ فى قراءتها لصورة الحبيب المعلقة أمامى فى الهواء.. هو يبتسم وكأنه يرددها معى وأنا أتلوها أمامه رسالة رسالة.

***

الرسالة الأولى: طفلتى الحبيبة "أمل"..

اشـتريت لك فستاناً صغيراً جميلاً تتداخل فيه الألوان فيبدو نسيجاً من جمال قوس قزح.. أتخيل وجهك بصفاء السماء بعد لحظات مطر صادقة.. أتخيلك وأنـت ترقصين به مثل زهرة وتصفقين ثم تلقين بنفسك ضاحكة فى حضن بابا مرة وفى حضنى مرة، أتخيل عينيك تنطقان بالدهشة والفرحة مثل عينى بابا أولى مرة رآنى فيها بعد زمن طويل من الانتظار يا "أمل ".

الإمضاء: (ماما)

الرسالة الثانية: طفلتى الحبيبة "أمل"..

أســـمع همساتك.. زقزقتك.. أسمع تغريدك هنا بين قلبى وروحى.. أسمعك تســـألينني: (ما بك يا ماما)؟.. لا شيء يا "أمل"، كم انتظرته!.. كم ضربوه وضـــربوني بقسوة يا ابنتى.. كم كانوا قساة حين أصدروا قراراتهم بسجنى ثـــم بمنتهـــى القسوة قرروا إبعاده عنى وقرروا سجنك يا طفلتى عن النور وعـــن الوجـــود.. كـــم كانوا قساة!، لكنى لا أستطيع أن أتوقف عن حبه يا ابنتـــى.. لا أستطيع أن أكف عن الحلم به.. ربما قتلونى أو أحرقونى، ربما مـــزقوا لســـانى لكـــن لا أحـــد يستطيع أن يمسه بداخلى.. هو كما هو فى الـــروح.. والروح فى النهاية لا تموت.. هل رأيت يا طفلتى؟؟ هل رأيت كى تكونـــى أنت كما أريدك وأتخيلك لن تكونى إلا من دمى ودمه.. سيكون فيك الكثير من ذلك الوميض النبيل فى جبين "بابا"ميا "أمل" وبذلك ستكونين أكثر الأطفال عزة فى هذا العالم..

الإمضاء: (ماما)

***

الرسالة الثالثة: طفلتى الحبيبة "أمل"..

ستشرقين يوماً مثل شمس فى أحد صباحات الربيع، سوف تأتين من كل هذا الحب وكل هذا الشوق وكل هذا الانتظار.. سوف أحيط وجهك وكأنى أحتضن القمـــر وأنا أهمس لبابا وأبتسم سأقول: أحبك.. وهذه الملامح الجميلة هى توقـــيع الله علـــى أجمل ما أبدع من قصص الحب العظيمة.. سيمد بابا يده الحـــنونة.. سيســـقط ضـــوء ابتســـامته الحبيبة على وجهك القمرى، ماذا

ستحسين ساعتها أيتها الطفلة السعيدة المحظوظة؟! إن قصة الحب العظيمة ستتجدد فى هذه اللحظة حين تتلامس يدا ماما "سلمى" وبابا "يوسف" وتتعاهدان من جديد على الخير وتحتضنان وجهك الرائع الحسن كما احتضناه فى الأحلام الكثيرة الصبورة، ستشرقين يوماً مثل شمس كل صباح أحلم به وأنتظره مثل عيد سيأتى يوماً كى أرى ذلك الحب الكبير فى عينى بابا.. ستحيين فى لحظة هادئة الصدق والرفرفة مثل قول أبيك الطيب لى: يا غالية!.

الإمضاء: (ماما)

***

الرسالة الرابعة: طفلتى الحبيبة "أمل"..

انطقى اسم "بابا" حرفاً حرفاً.. تعلمى كيف تُقَبلى الحروف يا حبيبتى، انطقيه بشرف وبفخر.. هكذا حرفاً حرفاً.. آه لو نعرف كيف نجزئ الحروف لزاد استمتاعنا ببهجة نطق حروف اسم "بابا" يا أمل ارفعى رأسك وانطقيه.. ارفعى صوتك ليتردد بين الجبال وانطقيه.. اضربى قدميك فى الأرض بقوة وانطقيه.. أوصانا "بابا" أن تكون مثل النخيل يا "أمل".. كان يقول لى: شدِّى قامتك نحو السماء مثل النخيل شاهقة حين تسيرين.. هل تعلمين يا "أمل" لو تملك ماما.. لو أملك لكتبت بالذهب الخالص اسم أبيك وعلقته على واجهة الكون، لو أملك يا طفلتى لقدمت القرابين كل شروق كئوساً من دمى للأقدار على أن تعيدنى فى النهاية بـ "يوسف".. لا تندهشى يا ابنتى فقديماً تاه منى وتهت منه قديماً كنت أبكى من فرط انتظارى.. ما وجدت عينيه ولا دمه

ولا ذلك الكبرياء فى جبينه.. أسرنى رجال ونساء كثيرون باعونى وعذبونى حتـــى وجدنى.. نعم عثر على، كان يعلم أنه فقدنى وأنى أتعذب.. بحث عنى طـــويلاً ثـــم عثر على ثم قال: أنت حرة! قال: لا تخافى!.. قال أنت سيدتى ومولاتى!.. غداً حين تكبرين يا طفلتى ستعرفين كيف تحس امرأة حين يقول حبيبها يا سيدتى!! ساعتها عرفته من عينيه يا "أمل" وعرفنى هو.. ساعتها رفـــرف طيفك يا طفلتى من جبين الفارس النبيل الجالس أمامى.. كان هناك تعب وعناد وشجاعة فى جبينه وكان قلبه أنهاراً عذبة ورقة.. لم يكن أمامى إلا أن أحبه وأحبه يا حبيبتى.. محظوظتان أنا وأنت به يا "أمل".

الإمضاء: (ماما)

***

الرسالة الخامسة: طفلتى الحبيبة "أمل"..

إنى أسمعك: أسمع صوتك يأتى من قلب الشمس.. أسمع صوتك بذات الطهر فـــى صـــوت أبـــيك الغالى "يوسف".. أشكركِ لأنكِ معى.. أشكركِ لأنكِ مع (بابا).. أشكركِ لأنكِ تسافرين بينى وبين أبيكِ الحبيب (يوسف).. مع خيوط الـــنور ومع قوس قزح تحملين العهود الجميلة الخفية بيننا بعدما طال زمن الفـــراق.. إنـــك يا ابنتى هناك موجودة فى تكوين النور وفى ضمير الجمال تشـــهدين أننى اخترته حباً كبيراً.. بكل ما فيه من فروسية وجراح.. لك أن تفخـــرى يـــا (أمـــل) بين كل القبائل وتدورى بين الشعاب تعلنين أنكِ أميرة وفارســـة لأن أباك (يوسف) ارفعى راسكِ يا طفلتى فأبوكِ وقف طوال عمره علـــى قدمـــيه يكفـــيه أنـــه حـــر لا يباع ولا يشترى.. كان يكفيه أنه يحلم

(بســلمى).. ثــم حــين وضعوا بينى وبينه الأسوار والبحار والجبال إذا به يرســلك لى فى الحلم كل ليلة تشرقين لى بذات الطهر وذات النبل فى عينىّ (يوسف) الحبيب.. أوحشتنى يا طفلتى من فرط ما اشتقت لعينىّ أبيك الطيب (يوسف).

الإمضاء: ماما (سلمى)

يحدث فى الشارع الخلفى

فـــى ذلك المساء من أغسطس والجو حار جداً، كان الجميع يتحرك مبتهجاً، رغم ذلك، كان شاب قد وقف يتأنق أمام مرآة تهشم نصفها فى غرفة رديئة فقيرة.. كان الشاب يسوى شعره ويضع (البارفان) الذى يحبه رؤساؤه بينما فـــى مكـــان آخر أكثر رقياً وقفت بضع فتيات مرحبات مع باقات من زهور وابتسامات رقيقة بينما مدراء على كراس تدور جلسوا يستعملون الهاتف.. الهاتـــف يذوب حثيثاً فى روقان الضحكة الآتية من مكان قريب فى (أوتيل) كبير مجاور! فى هذه اللحظة من يستمع – الآن – يعرف أن السادة المدراء يستعجلون فى رجاء سيدات رائعات بحق سوف يقدن دفة هذا المساء.. كان مساء رائعاً من أغسطس، والإذاعة والتلفاز يعلنان عن افتتاح مهرجان صيد الإستاكوزا فى مدينة "X" الجميلة. و............. طفل صغير يسكن واجهة المدينة يشاهد التلفاز فرحاً مشدوداً ، يروح ويجيء أمام الشاشة والمصور يركـــز علـــى أبيه الجميل وطاقم أبيه الجميل.. والملابس الجميلة.. الأزرار الثمينة.. الياقة اللامعة والكم المكوى، ثم تصعد الكاميرات لأعلى إلى سماء المدينة وبالتحديد إلى سماء هذه المنطقة من المدينة.. إلى جمال سماء هذه المـــنطقة من المدينة.. إلى روعة سماء هذه المنطقة من المدينة.. يضحك الطفـــل وهو يقضم شريحة (الهامبورجر) يضحك فى سعادة وهو يشير نحو أضـــواء الليـــزر البهيجة، وتقول أمه المحظوظة: هيا.. هيا.. لقد تأخرنا يا

"دودى" ألا تســـمع.. (بابـــى) أرســل الســيارة لــنا لنذهب إليه هناك حيث المهرجان الكبير!.

فـــى ذلــك المساء من أغسطس والجو حار جداً كان بيت من بيوت الشارع الخلفـــى يحتاج حقيقة إلى آلة تهوية.. كل البيوت فى الشارع الخلفى كانت تفتقر إلى آلات التهوية.

وقال ولد صغير لأمه مشيراً إلى التلفاز: انظرى.. إنها مدينتنا يا أمى!!.

صاح الأطفال: هيه.. هيه.. مدينتنا يا أمى!!.

لو كانت شاشة التلفاز فى هذا البيت ثمينة، لو كانت نظيفة، لو كانت لامعة مـــثل واجهـــة المدينة! لو كانت تبرق لظهر خلف أضواء الليزر على سطح الشاشـــة انعكـــاس لمنظـــر الأطفال والأم فى هذه اللحظة.. إنهم حول مائدة خشـــبية قصـــيرة الأرجل، إنهم يجلسون على الأرض، إن الأيادى قد امتدت تتشـــابك أعلـــى المائدة بينما الأرجل قد تشابكت أسفلها وغاصت فى تراب المكان.. هكذا الحال مثل معظم بيوت الشارع الخلفى.. بينما تظهر الآن على شاشة التلفاز قاعة كبيرة ظريفة ضجت بموسيقى راقصة صاخبة، وجاء من قلب التلفاز صوت مبتهج يردد: ترحب مدينتنا بالضيوف الكرام..

نفتتح بحمد الله مهرجان الإستاكوزا لهذا العام!!.

قـــال طفـــل ذكـــى العينـــين لأمـــه (وقد شدته كلمة ما): أمى.. ماذا تعنى (الإستاكوزا)؟.

طفقت الأم ترص قطع الخبز أمام الأطفال ثم فتحت كيس المخلل فى طبق ثم حـــركت طبقاً "آخر" به شرائح من الباذنجان المقلى، وقالت: هيا يا أطفال..

هيا يا أحبابى.. إلى العشاء.

لكن الطفل استمر يسأل: أمى.. ماذا تعنى الإستاكوزا؟.

والأم راحت تدس لقمة لقمة فى فم الصغير الذى على فخذها يجلس بينما شاب خارج من البيوت الصغيرة فى الشارع الخلفى مدهون الشعر.. حلو الرائحة، مازال يسوى ملابسه يحث الخطا مسرعاً حين أقبلت نحوه فتاة دافئة الصوت تهمس فى خفر: مساء الخير.. فايد هل ستتأخر؟ هل أنتظرك من نافذتى فى التاسعة فأشير لك وأقول: تصبح على خير يا فايد، كانت تبتسم فى خجل وهى تهمس بكلماتها القليلة وعيناها على وجهه بينما كان الشاب لا ينظر إلا فى ساعته وكأنه لا يسمعها إلا أنه أثبت بالفعل أنه سمعها ذلك أنه رمقها بسخرية واضحة ثم أردف يقول وهو يسرع الخطا أكثر: التاسعة؟! الليلة حفل (الإستاكوزا) الكبير فى واجهة المدينة.. الناس هناك لا تنام فى التاسعة.. الناس.. الناس المحظوظون أيتها الغبية التسة!!.

ثم عاد يبتسم مولياً نحو الرصيف: مدفونون نحن هنا.. الأموات هم فقط من كتبت عليهم الحياة فى الشارع الخلفى! أوقف عربة وهو يصفر ويصيح فى فخر: اتجه بى نحو واجهة المدينة.. بسرعة من فضلك! فى هذه اللحظة بالضبط بكى الطفل الصغير على فخذ أمه.. دعك وجهه بيديه وبكى بصوت حاد رفيع.. آء.. آآء.. آآآآء..، بينما الأطفال الباقون يتصايحون فرحين: مدينتنا يا أمى.. مدينتنا!! بيجاماتهم وجلاليبهم تبقعت بزيت الباذنجان بينما استمروا يتصايحون فرحين: إنها مدينتنا يا أمى!! لا شيء فى الأطباق بينما هم يتصايحون فرحين: إنها مدينتنا يا أمى!! والتلفاز مازال يعلن: مشاهدينا

الأعزاء.. هذا هو مهرجان الإستاكوزا العاشر من مدينة "X" الجميلة، والأم تهـدئ الطفل: يا حبيبى بابا يحضر الآن ومعه الحلوى لك! قال الطفل الذكى بجوارها: أليس معك ثمن قطعة حلوى يا أمى؟!! كانت المرأة تعرف، وتفكر، لـيت مقـاول البـناء يشفق على حالهم ويقبل رجاء زوجها.. كانت تعرف وتدعـو الله فى سرها. الشتاء قادم بعد شهور قليلة والمطر قادم والأخشاب فـى السقف تنذر بالخطر.. السقف لابد أن يشيد بالخرسانة وإلا فالطبيعة لا ترحم.. أتلف المطر كل شيء فى الشتاء الماضى. فى الشارع الخلفى الحياة عنـيدة ومـرة فهـل يقـبل مقـاول البناء تشييد السقف بالتقسيط! تنهدت وهمسـت: يا رب!.. وسأل طفل: أمى.. ماذا تعنى الإستاكوزا؟ وسأل الطفل الذكى: لماذا لا نسكن واجهة المدينة يا أمى!! إنها ليست لأمثالنا يا حبيبى!! لكـن الطفل عاد يقول مشيراً نحو التلفاز أنظرى لو كنا هناك يا أمى لذهبنا إلـى هذا الحفل الجميل ولأكلنا كل هذا الطعام اللذيذ ولبسنا نحن وأنت وأبى مثل هذه الملابس الجميلة (ثم فجأة.. قفز وهو يتجه بإصبعه نحو شاب أنيق ظهـر متبختراً يرص أنواع الطعام على الموائد) صاح الولد بفرحة طفولية: "فايـد".. انظروا إنه "فايد" جارنا يا أمى! كانت أضواء الليزر مازالت تبرق فـى سماء الحفل و(كاميرات) التلفاز تجول وتلتقط كل ما هو براق ومرض وكـان ثمـة لقاء تلفزيونى مع أحد المسئولين الذى أردف ضاحكاً فى فخر: مدينتنا "X" الجميلة.. مدينة المستقبل، والجميع هنا ينعم بالرخاء والرفاهية (ثـم استطرد يقول): بل إن مثل هذا الحفل الكبير الرائع سيتكرر مرة أخرى فـى الشـتاء أيضـاً!! سـأل المذيع: بنفس هذا الزوق وهذه الروعة وهذا

الجمـــال؟! قـــال المســـئول: نعم.. بل سيكون أكثر جمالاً ثم (ضحك ممازحاً فرحاً) وهو يقول: إننا ننتظر الشتاء القادم بفارغ الصبر كى نبدع ونبدع!

.... طقطقــت خشــبة فى سقف البيت أفزعت الجمع المشدوه أمام التلفاز.. نظرت المرأة لأعلى وتمتمت فى فزع: سترك يا رب هــذا الشــتاء! لكن الضوء انقطع فجأة، فقام الأطفال إلى النوافذ ينظرون.. سُمع رجل قادم من بعيد إلى الجوار يقول: إنه الشارع الخلفى فقط.. مازالت السماء فى واجهة المدينة تبرق بالأضواء!!

أمـــا المـــرأة فقـــد وقفت على الباب فى قلق حاملة طفلها بينما ضوء القمر ينسل من بين أخشاب السقف المتآكلة.

أيام الرفاعى

أخبرتنى أمى أنهما لم ينتظرانى أن أكمل الشهر الأول من عمرى إذ قدما بى إلى بلاد يسكن أهلها بيوت الحجر.. هناك نمت بجوار أمى، قالت: كان أبوك مع الرجال يقبل أيادى الجبال أمنا الطيبة كى يعود لنا بسبعة جنيهات وقطع قليلة من (الكراميل) أحلى لك بها مقدار رضاعتك من اللبن.

أمـــى وضـــعتنى هناك وجلست تستمع.. القمر وحده كان هناك يؤنس نساء الـــوادى وصوت المديح الصادر من مندرة رجال الرفاعية، كانت أمى أيضاً تأتـــنس بالـــنجوم.. حيوانات الجبل لا يخرج لها صوت إلا حين تحس خطراً يهدد الطبيعة ؛ فالكلاب مثلاً لا يسمع نباحها إلا حين يظهر الغيم... كنا عادة نعـــرف أن تغيـــراً فى الطبيعة سيحدث، فمن المؤكد فى مثل هذه اللحظة أن تمطر السماء، قالت أمى: وأنت صغيرة لم تكملى العام بعد، كنت لا أستطيع التحرك بشمعة نحيلة الضوء فى يدى.

قالت: لمحنى أحدهم وزجرنى.. الطائرات الإسرائيلية كانت تمسح الجو على امتداد البحر.

قال أبى: حملتك وأنت ابنة العام الواحد، خرجت بك إلى ناحية الوادى أريك الفرحة فى عيون الأهل وصوت الرجال من مندرة الرفاعية كان يتردد طرباً نشـــوان، ولا تسألنى أمى إلى أين أنا ذاهبة.. تنظر إلى متعجبة دهشة وأنا أدق الأرض بأقدامـــى الصغيرة معملة كل حواسى مترقبة بانبهار مرور ذلك

المـــوكب.. حـــين ألمحه من بعيد يدخل شارعنا، تتقافز ضفائرى من ورائى وأنـــا أجـــرى.. أجرى حتى أندس بين العيال الكثيرة وأرجلنا المصرة تطير الحصـــى الصـــغير.. الـــرجال الواقفون أول الموكب رافعو الرايات الخضرة المفرودة يقرءون (الفاتحة) أمام كل باب، وهناك أبى دائماً كان يقف باسماً بعلبة الحلوى أو الجنيهات الخمسة واقف يردد معهم.. الفااااتحة!!.

كـــنا صـــغاراً نـــتحلق حول الرجل المحبوب حامل جوال الحلوى، يدخل فى الجـــوال يده الضخمة ثم يخرجها يرشنا بالحلوى كان والعطور.. الله حى.. الله حى.. الله حى.

صـــوت الطـــبل المميـــز كـــان يظـــل سبعة أيام يتردد بين الجبال المحيطة بالوادى.. الصوت القوى.. طراك.. طراك.. طراك.

الصوت الرقيق: تسن.. تسن.. تسن وأنا أجرى.. أجرى.. تدخلنى أمى وقت الغروب كى أغتسل من غبار الجرى مع موكب الرفاعية، ثم توصينى محذرة مـــن العقـــارب، تغـــدو وتروح، وتروح وتغدو.. تتمتم متعوذة: شيء لله يا رفاعى!!.

أسرة النوم كنا ننقلها إلى باحة البيت الواسعة.. كعادتنا فى الليالى الصيفية، وأنا أرفع إلى النجوم المعلقة عينى أكون قد وصلت إلى منتهى السعادة، ذلك أن ملابـــس العيال الملونة سوف تظهر فى حلم الليلة بكل ألوانها الجميلة، حلقتـــنا الكبيرة التى صنعناها بعد أن سرنا مسافة كبيرة فى صحراء الوادى وهـــؤلاء الـــرجال الـــذين وقفوا يتبارزون بسيوف الخشب.. رائحة العطر النشبة..

صوت الطبلة: تسن.. تراك.. تس.. تراك.
وأروح فى النوم السعيد، صوت أمى يأتينى من بعيد: شىء لله يا رفاعى!!.
نفـــس الموكب ها هو يسير، ملامح الرجال اختلفت قليلاً وعيال صغار مثلما كنا.. يرمحون فرحين بالموكب والحلوى.. أبى واقف على بابنا ينتظر ظهور الموكب كى ينضم، نفس الرائحة النشية أشمها وأنا أنظر الآن من بعيد.
وأنا أنظر الآن من بعيد لا ألمح الموكب ولا الرجال ولا باباً يفتحه أبى ليقف منتظـــراً.. لا صـــوت ولا حلوى ولا رائحة عطر، قال البعض: أجبرنا على الرحيل!!
وقـــال آخرون: لم تعد الجبال كما هى الحال فى شبابها أصبحت الجبال مثل امرأة فات زمان جمالها فهجرها رجل كان قد عاش عمره كله بين ذراعيها، البـــيوت مـــا عادت بيوتاً، ما عادت سوى الأرض، والأرض بلا جدران، لا جدران ولا بشر.. لو يستطيع الواحد منا أن يحتضن الأرض: أمنا الطيبة!.
رحلـــنا وتـــركنا ضحكاتنا بين الجبال يتردد صداها.. كذا أصواتنا.. أجراس المدارس ودبدبات أقدام الرجال الهارعين إلى المناجم فجراً.. انتفاضة الجبل انتشـــاءً حـــين بدء غزل المطر.. بكى رجال كثيرون بينما يمرون بالعربات المحملة بمتاعهم من تحت كوبرى الفوسفات.. قال بعضهم: البلد لم تعد فى حاجة لنا نحن عمال المناجم.
وقـــال آخرون: إنه نظام جديد، تؤول الشركة إلى غير الحكومة، نظام جديد يخـــرجنا من بيوتنا، نظام جديد يطفئ الأنوار على ما بنينا من بيوتنا.. نظام جديد يسلـ من كياننا تاريخاً بأكمله.. نظام جديد يطفئ الأنوار على ما بنينا

بأيدينا.. نظام جديد يحسر المياه عن النخيل وأشجار البرتقال التى غرسناها داخل مربعات صغيرة فى بيوتنا كى ننتهج كل صباح باللون الأخضر..
نظام جديد يحعلنا نحمل متاعنا ونرحل، والمدارس والمساجد مازالت شامخة تودعنا رغم صعوبة الموقف..
قال البعض: تصفية، وقال البعض: خصخصة!!.
بكـــى رجـــال كثيرون ونحن نعبر نقطة الشرطة وباحة النخيل أو الوادى.. البـــيوت المرفوعة فوق التلال ماتت أشجارنا على صدورها، والهواء يدفع التـــراب علـــى سطوحها المائلة.. سطوحها المائلة تعيد الوادى إلى تاريخه القديم.
مـــثلما أخبرنى أبى: هذه البيوت بسطوحها المائلة فكرة الخواجات أول من ذاق خيـــر جبالـــنا الطيبة، وأنا أنظر من بعيد أسمع صوت موكب الحضرة يلفلـــف الفضـــاء الكبير، دائماً ما كنت أبتهج لما أسمع صوت الموكب، هذه أول مـــرة أبكى فيها، قلت لأبى: ننتظر قليلاً! لكنه أخبرنا أن الكهرباء أيضاً ســـتقطع.. الرحيل أمر من سلطة أعلى، الرحيل أمر مفروض على الجميع..
وقالـــت أمى: يا ابنتى فى الظلام. الجبل مليء بالعقارب ورددت "شيء لله يا رفاعى"!!

صباحٌ رشيقٌ مرحٌ يرتدى البلوجينز

هذا هو بيت السيد (أ) وهذه الجدران الواقفة فى ألم وتحد وصبر هى جدران بيت السيد (أ).. كان طرق راقص على البوابة يسمع بوضوح: طراك.. تاك / تاك.. تاك / طراك.. تاك.

من يا أطفالى؟!.

– صباح البحر يا أمى!!.

إن هـــذا الصبح يتقافز مع الأطفال، فى رشاقة يتقافز، يدق أبواب البيوت و الحـــارات، كـــل شـــىء هادئ غير أن السيد (أ) يصحو يفتح عينيه.. يفكر، وحـــين يـــدرك أنه بدأ يفكر.. يعدل عن رأيه، يهمس فى حنق: لن أصحو.. ســـأغمض عينى.. ربما نمت.. لا أريد أن أصحو! هكذا فى الصباح يستيقظ البعض.. يتثاءب، يتمطى.. ثم يبدأ بعض التمارين السويدية البسيطة للحفاظ علـــى الـــبطن من ترهلات التخمة بينما البعض الآخر يظل مبحلقاً فى سقف الغـــرفة، حين يصحو........ يسأل نفسه: ماذا سيأكل الصغار؟ وأخيراً قال الســـيد (أ): لـــن أصـــحو.. لا أريد أن أصحو! غير أن صخب أقدام صغيرة ونشيج طفل مغلوب على أمره ارتفع فجأة وثمة آنية فارغة انفلتت فجأة من بين يدى امرأته على أرضية المطبخ فأحدثت رنيناً حاداً مستقراً وكأن الرنين ضـــحكة شـــريرة رفيعة عالية تسخر من السيد (أ) الملتحف فى غطاء على ســـريره القديم الباهت، كأن، هناك من اختبئ فى ضباب الضوء المبكر لهذا

الصــباح وضحك وسخر وقال: لن تنام.. أقطع ذراعى لو غفوت حتى! فتح السـيد (أ) عينه اليمنى بضجر ثم اضطر آسفاً لأن يرفع جفنه الأيسر، كان يعلـم علم اليقين أن الآنية ما انفلتت من تلقاء نفسها، كان يعرف أن امرأته هى الفاعلة، هكذا مثل كل صباح: وبعد يا امرأة!!.

– ماذا يا رجل؟!.

– ألا تعـرفين الهدوء أنت وأولادك.. الهدوووووء، كل صباح استيقظ على صــوت ارتطام آنيتك الفارغة بأرضية مطبخك اللعين! ألا تعرفين الهدوء يا امرأة؟!.

الهــدوء؟! تحدثنـــى عن الهدوء.. استيقظ أنا من فجر الله أقلق الدجاجتين التعســتين، أركع على الأرض أمامهما وأقول: هيا من أجل الصغار.. هيا يا جميلتان!!، أجمع البيضتين أو الثلاث، تقول الهدوء!! ماذا تفعل البيضتان أو الــثلاث لــك يــا رجل ولأربعة أطفال، كل صباح أرسل ولدنا يشترى خمس بيضـــات وبعض الجبن، تقول الهدوء يا رجل!! ماذا أفعل والصغار يصحون جوعـــى واليوم هناك طويل فى مدارسهم اللعينة، ولابد أن أحشو الكثير من الشــطائر، كــل صباح يدور هذا الحديث بين السيد (أ) وامرأته والتى تنهيه بقــولها وهـــى تــزعق: مـــاذا أفعل يا رجل؟! ماذا أفعل بعد أن تفرغ آنية البــيض؟! ماذا أفعل والسؤال يرن فى أذنى: ماذا سيكون على المائدة حين يعــودون؟ مـــاذا أفعـــل يا رجل سوى أن أقذف بآنية الطهى هذه بكل قوتى وبامتداد ذراعى النحيلة البائسة هذه؟!.

ثـــم إن السيد (أ) يهم بقوله: هونى عليك يا زوجتى الطيبة، لولا أن صوتها

يـــرتفع أكثـــر: وملابـــس العيد يا رجل، ابنك يصرخ من أجل (الجينز) الذى وعدت أن تحضره فى العيد، أصحابه كلهم يرتدون (الجينز)!

خاله أحضر بالأمس مجلة.. كلهم فيها يرتدون (الجينز)!.

يصـــمت الســـيد (أ) ويرتدى ملابسه، يخرج للعمل ويخرج الصغار كل منهم علـــى ظهره حقيقة فيبدون كسلاحف حقيقية وتقف المرأة على البوابة تقول فى غيظ مكتوم: فى سلامة الله! والناظر إلى الشارع الكبير بعد دقيقة واحدة لا يكـــاد يحـــدد بالضبط مكان السيد (أ) ولا مكان الصغار.. يضيع السيد (أ) بـــين جموع الموظفين والعمال المبكرين إلى أعمالهم، أما الصغار فينزلون إلـــى بحـــر كبير واسع، بحر من السلاحف الصغيرة الزاحفة إلى المدارس. وفى مثل هذا المكان الذى يقطنه السيد (أ) تتشابه وجوه الصغار، تتشابه فى شـــحوب اللون وغور العينين وانخفاض الوجنات بينما الرجال يبحلقون فى العيون الصغيرة الغائرة فيبين على وجوههم شيء من الحزن غير المعروف ســـببه المتفق على إخفائه فيما بين الواحد منهم ونفسه وفيما بينهم، وهنا يحثون الخطى نحو الأرصفة والعربات التى سوف تلقى بهم فى أتون العمل مـــن أجل قطعة خبز، قطعة خبز وبيضه من الدجاجة الجميلة فتصنع امرأة السيد (أ) شطيرة للصغار كل صباح، فى الحقيقة أن الرجل وامرأته لم يكونا ليولـــيا هذا الأمر اهتماماً لولا أن ورقة جاء بها كل ولد وكل بنت.. أوراق جـــاء بهـــا الصـــغار من مدارسهم، كانت كل ورقة تقول: السيد (أ) مطلوب مقابلـــتك بصـــورة عاجلة ابنكم (أو ابنتكم) يبكى طوال اليوم من ساقه، إنه يعانى سوء التغذية وضعف تكوين العظام، وهناك كانت السيدة المديرة تقول

بصـــوت جـــاد مخلص: اهتم بتغذية أولادك يا سيد (أ) أولادك يعانون نقص الكالســيوم ونقص فيتامين (د) وفيتامين (هـ)!، يقول السيد (أ) فى خجل: الله الشافى يا حضرة المديرة، وهناك قبل أن يخرج من مكتبها تقول السيدة فـــى صـــوت متـــردد: هـــناك أمـــر آخر يا سيد (أ) أعنى مصروفات الكتب المدرســية.. لـــو تســـمح.. أرسلنا لك عدة مرات وأنت تعطل أعمالنا فيرد الرجل فى خجله الشديد: إن شاء الله سأحاول.. هذا الأسبوع سأحاول.

كـــان رأس الســـيد (أ) يضـــج بكـــل هذه الحكايات الصغيرة المتناثرة تحت بصيلات شعره المغروسة فى الجلد التعس، هنا وهنا وهناك.. والمتأمل لحال الســـيد (أ) والمتأمل لما يطرأ على تكوينه الشكلى من تغير يكتشف أن شعر رأســـه قـــد بدأ يهرب بعيداً.. يهرب فى الهواء.. يهرب بنفسه تاركاً الجلد الـــتعس وحـــده تأكله الهموم من فوقه ومن تحته، الزحام اشتد فى العربة (الميكـــروباص) فجـــأة جاءته دفعة كادت تلقى برأسه نحو زجاج النافذة.. جعلته يفيق والزحام من حوله شديد، أطفال ورجال وسيدات، الكل فى حالة تأهـــب للوصـــول لمكان العمل.. تذكر السيد (أ) خال أولاده اغتاظ فى سره وقال لنفسه:....... هذا الفتى المخبول المعقد لا يفتأ يكوم المجلات الأجنبية أمام الصغار ويكرههم فى حياتهم!.

نـــزل رجـــل مـــن العربة فانتبه الجميع.. فيما يبدو أن الكل كان شارداً مثل الســـيد (أ)، لا أحـــد يدرى أن الآخر شارد مثله، كان رجل بجوار السيد (أ) يفكـــر فى تدبير نفقات زواج ابنته، فيما امرأة عاملة كانت غارقة فى عملية حســـابية تتعلق بملابس العيد بينما طفلها على ذراعها كان ينظر للبحر من

بعيد ويفكر: متى أكبر وأصير قبطاناً مثل جلفر والسندباد!.
أعنـــى مصـــاريف الكـــتب.. لـــو تسمح أرسلنا لك عدة مرات وأنت تعطل أعمالـــنا.. مـــرة ثانية شرد السيد (أ) فى كلام مديرة المدرسة، كان يود لو يقـــول لهـــا: صـــبراً فقـــد دفعت بعض الأقساط ثم إن إيجار البيت وتكاليف المواصـــلات و............، كان يود لو يقول الكثير.. كان يود لو صرخ هنا فى العربة، لكنه ضبط نفسه فجأة.. كانت عضلات وجهه المتقلصة قد أخذت شـــكلاً مضحكاً رآها فى مرآة السائق وضحك من نفسه، والسائق كان يردد مع جهاز (الكاسيت) أغنية غريبة.. كان مغنٍ قبيح الصوت ذكى قد هرب من الفقـــر بطريقته الخاصة، ثم سمع السيد (أ) لصبيين يتجادلان، كانا يرتديان (الجينز) الأزرق.. كانا يتحدثان عن حلقة أمريكية.. قال أحدهم: أمريكا هى الأفضل.. هناك تعيش حياتك كما تشاء.. قال الآخر (وكانت فى يده مجلة لم يســـتطع أن يفهـــم لغـــتها السيد (أ) رغم أنه مط رقبته بشكل ملفت) سمعه يقول: اصح أيها النائم انظر.. انظر.. ألمانيا فرصة ذهبية (ثم استطرد وكأنه يحلـــم) عندما أكبر سأعمل فى قرية سياحية وأتزوج من بنت ألمانية أتمتع معهـــا بالدنـــيا والثراء.. وقال الآخر: كلنا سوف نفعل ذلك.. سوف نصبح أفضـــل مـــن المـــدرس الأجرب الذى يضربنا (ثم همس بصوت حزين يثير الشفقة) أبى ضربنى اليوم لأننى قلت له أريد كل يوم نصف جنيه.
فى البداية كان السيد (أ) يمط رقبته مندهشاً حتى أنه لم ينتبه إلى أن الجميع غـــادر العـــربة.. لكن عندما سكت الصبيان عن الكلام ونزلا قال السيد (أ) للســـائق: إنزلنـــى هنا.. مد يده فى جيبه ودفع القروش أجرة السائق وهو

يخفـــى وجهه ويتابع الصبيين بعينيه.. كانت هناك دمعتان كبيرتان تنحدران على خديه والساعة تدق الثامنة صباحاً.

شيءٌ ما!!

ولــدٌ وبــنت وأشــياء حلوة، على الجسر الأخضر الطويل.. رائحة الطمى مازالــت عطراً على صدر مريلتها الزرقاء... عبير الأرض يلف ضفائرها.. يطير شرائطها الحمر عالياً.. يمسكها الولد يعيدها إلى مكانها ويضحك!.

تلامــس أعواد القمح كم قميصه.. حين تبلله الوريقات الطوال الندية تمسح بكفها الصغيرة كمه... تضحك!.

على الجسر الأخضر الطويل كانت أرض الجنوب لم تزل تحنو عليهما!

تــك.. تــك.. تك.. أمومه صوت الميكنة تدفئ صمتهما ينساب السر الصغير هادئاً عذباً.. يحتضنه نسيم الجداول.. تحتويه رائحة البلح الأصفر.. تدور كل السواقى حين تطرق الصغيرة خجلاً!!

عندما طالت ضفائرها وتهدلت كثيراً أقسم الولد أن لا تفترش جدائل شعرها سوى كتفيه وأقسمت البنت أن تظل دوماً على الجسر معه، حين سمع أبوها طلــب أبــيه ضرب كفاً بكف.. نظر إليه شزراً وصاح: أنت؟! حين تساءلت عيناها فقأ بسؤاله أملها: ألا تدرين لمن ت ن ت س ب ي ن؟! حين حاولت أن تهمــس صــفعها بــيد ومد الأخرى بلفافة لها رائحة الدم ترسم عروقها شــجرة عجــوزاً كئيبة!!.. ضربت الأم على صدرها وشهقت: ابن الزمارين منشدى المواويل!!

حــين ضــمهما الجســر الطويل سراً كانت جدران البئر الحلوة قد تشققت

واســتحالت خضـــرة طحالبها سواداً، حين أخذ وجهها بين كفيه كان القمر مختـــنقاً يضـــن بـــنوره إلا على / ولد وبنت وأشياء مشروعة / سافر فى عينـــيها طويلاً.. عند مأذون البندر شاهده أحدهم.. لف القرية.. قسمٌ أحمق يتـــردد.. ألســـنة حـــداد وبـــنادق مصوبة وأحلام طير، وسط دائرة الموت أوقفوهما..

ضـــمها الـــولد إليه كثيراً هاج أبوها وحاول أن ينتزعها من بين ذراعيه.. حـــاول أبـــوه أن يخطفه ويهربا.. حين لم يفلح أى منهما فكروا ربما أذابت الـــدماء الوشـــائج الخفـــية فـــى بـــركة من دماء أغرقوهما.. فرحوا كثيراً وأحضـــروا نعشـــين علـــى أحدهما بماء الذهب نقشت شجرة وعلى الآخر أرسلت نظرات التأفف، وعندما اقتربوا منهما فوجئوا بأن الجسدين واحدٌ!.

يا شيخ ياللى عَ الجَبَل

ذلك أن ذلك اليوم ليس ككل الأيام!!

... البقعة شاسعة بين الجبال لكنها محدودة..

محـــدودة بحـــنو تفعلـــه تلك الجبال! كطيور عملاقة لكنها حنون فاردةً على بيضـــات أجنحـــتها مغمضة عما وراء الأفق عيون سلام كلها، جذوع الطير تضم الأرض النابتة بالعشب الأصفر وتضم الخلق الكثيرين..

ألـــوان الجـــبال الحمراء والرمادية والسوداء والصفراء تصنع مع أشكالها المخـــتلفة نـــوعاً آخـــر مـــن السلام الجميل البكْر.. وكأنها عرفت سر ذلك اليوم!!.

– ذلك أن ذلك اليوم ليس ككل الأيام!!.

"يا شيخ ياللى عَ الجبل.. اعملك فطيرة بلَبَن".

"يا شيخ ياللى عَ الجبل.. اعملك فطيرة بلَبَن".

من الطريق القادم بغباره الأصفر – بعد عدة كيلو مترات

من الوادي الصحراوي المسكون بالبشر – كانت كل العربات

مُقبلة.. تعزف جميعها بآلة الصور ضوضاء بهيجة: ضوضاء عيد!!

العـــربات الـــنقل ونصف النقل والبيجو القادمة من وادي "الحويطات" ومن "ســـفاجا" ومن العاصمة جاءت تحمل للشيخ خير البحر وذهب الجبل.. تحت العجلات كانت تلك الأعشاب المصفرة – المليئة بالأشواق الدقيقة المؤلمة.

غالــباً – تستكين سعيدة تكسو البقعة.. ترتكن العربات القادمة حديثاً بجوار تلــك التــي جاءت منذ فترات ولحقت لها مكاناً هنا أو هناك.. حيث لا مكان لقــدم فـــي الـــزحام... ومـــازال البشر من العربات يتقافزون، بيد أن الكل ســعيد... العربات، والعشب الأصفر، والجبال المحنية في سلام جهة الأفق الأصيل الشفق الأحمر!

– ذلك أن ذلك اليوم ليس ككل الأيام!!

– يا "حسن" افتح.. افتح يا "حسن"

مـــا للفقير سوى ضريح بقماش أخضر، ولو كان كهذا وراء جبل، ولو كان كهذه حُجرة ضيقة لا تتسع لأفراد خمسة.

(تكفى الفقير يا "حسن" نظرة، ولمسة، ونَفَس من طيب القماش الأخضر).

(يا عم "حسن" قم بسرعة.. يا حارس الضريح – وافتح!)

مـــلاءات النســـوة تضرب في بعضها مزاحمات.. كفوف النسوة في حرص وخوف تقبض على الشمعات، في كل كف سبع.. من الشمعات سبع. يدفعن "حســن".. "حسن" يضيق بهن رغم العشق اللامنتهي يزعق بوجه طيب كأنه قطعة من صفحة السماء: الصبر يا بنت الناس.. الصبر يا بنتَ العرب"!!.

اثنـــتان.. اثنتان – يُدخلهن – تَدخل واحدة تنكب على الحصر وعلى القماش الأخضـــر تلـــثمه.. تُغــرس في ركن بين إحدى الخشبات القائمات والقماش المدلى – ريحانة،، تلف، في الأركان تحط، في ظلام الغروب القليل الزاحف تشتعل بوهج أحمر مصفر سبع شمعات صغيرة.

: يـــا شـــيخ "جامع".. ندراً عليَّ لادبحلك جدْى... جدْى بحاله لربنا يا بركة

حارسة الجبل والوادى!.

.. ياللا يا ولدى دخّلنا يا "حسن" مشتاقين يا ولدى!.

الصوت حلوٌ.. تماماً كالوجه ثنياته حلوة أسمر كقمر صيفى يختبئ في ثنيات ســحابة شــفيفة، مــنذ سبعين سنة كان لا اسم لها سوى "المليكة".. مليكة جمــال القبــيلة، وللعبابدة سكان الشعاب شباب لا يكفون عن مداعبتها حتى اللحظــة، ودعوتها للرقص بعد رحيل الأغراب وخواء المكان إلا منهم آخر لــيلة كــل موســم.. و......هــا هي تعود مشتاقة تملأ الجيوب بالأعشاب العطــرية.. تعَطِّر الطاقات بأدخنة البخور بعدها ترفع الحُصُر ململمة ما نام من دقيق التراب تحتها.. تكبس الجيوب متمتمة:

زعفران ترابك!! شى لله يا شيخ "جامع"!

.. "رابحــة" عــروس الولد – خليفة العجوز على عرش جمال القبيلة – في الــيد ويدخلهما "حسن".. تخطو على الحُصُر الصفراء القش.. تسقط ملاءة "رابحـــة" فتتدحرج روائح عطر الخلاصة الأسود المعتق من الملاءة والجسد الفائــر، تملأ المكان رائحة صابون حلوة من تحت طرحة شعرها الذى يبدو ليــناً مــازال رائحـــته حلوة زكية تقول عن طهارة حديثة من حَيْض فرحت بانتهائه قبل زيارة الضريح بيوم، وللعجوز الجميلة زوج من العيون الفاحمة تبكــى بهما متشبثة بما تدلى من قماش الضريح وتشهق: أحج بيت الله قبل ما أموت يا شيخ "جامع" وأشوف لولدى ولد!!.

تزعق على "حسن" (اقفل الباب يا "حسن" ما تدحل حداً الآن)

– ارفعــي يــا رابحة!.. ترفع "رابحة".. تزيح الهدوم عن بطنها المنخفض

وتبكـــى، تـــدلكها العجوز – مشفقة – بقماش الضريح الأخضر.. تَسقُط كل دمعـــة مـــن عيـــنها علـــى حبة من العقد المتربع على صدرها فيتهلل وجه العجوز الجميلة، تأخذها في يدها وتخرج.

– ذلك أن ذلك اليوم ليس ككل الأيام!!

"افتح يا "حسن".. يا "حسن" افتح.. ما للفقير سوى انتظار مواسم البركات!".

.. علـــى يمين عتبة الضريح حصير "حسن" حارس الضريح، وكنكة الشاى علـــى الوابـــور يقـــف ليدخل اثنتين، يغلق عليهما الباب دقيقة يعود بعدها للوقوف.. تتدافعه النسوة والزحام لا ينتهي.. لكن العشق للموسم يهونَ كل ألـــم.. أو لـــيس السر الأول وراء بَركة الدار والعيال يكمن في وقَفة الرضا هذه وهذا اليوم المبارك!!

وعلـــى بعـــد غير كبير من الضريح والرجال تتناثر باقى أكوام النسوة على امتداد البقعة الشاسعة كل جماعة من بلد:

كومة.. اثنتان.. ثلاثة.. سبع.

كـــل جماعـــة من بلد على مقربة – جلسن – من العربة التى يحضرنَ بها والـــرجال.. كل جماعة منهن تحت خيمة والطَّار في اليد يرن، يدق ويشخلل شخللة حلوة: دقة ودقة ودقة.. أربع.... سبع.

على دقة الطَّار رقصة.. على كل دقة رقصة!

... وللجبل رقصه الخاص، ولموسم الشيخ رقصه الخاص!!

"ياشيخ ياللى ع الجبل.. اعملك فطيرة بلَبَن"

... "نصـــرة عبدالكريم" يتيمة الأم، والأب عند النار يرقص بالسيف الخشبى

أمــام الأوانــي الكبيــرة التــي بها اللحم يغلى.. أودع الأب العمّات "نصرة" والعمات أحببنها.

"نصــرة" حلــوة قــرطاها عنقودا عنب، في وجهها رائحة جنينة في ظهيرة صيف!

... على الطّار دقة، وعلى الطبلة دقة.. سبع دقات.

دقة على دقة.

: كف على كف.

... "ونصرة" تهز الطرحة، تلمس الطرحة الأعشاب، وتميل بالكف منه تندلق الحــناء حمــراء حــارة.. تشير مخبأة الوجه: من بعيد يضحك "سالم" يقوم ليغنى للرجال على النّار.. تأخذ الفرحة النسوة، معهن أحضرن أكياس الأرز، ورحــن يبنــين أمام الخيام الكوانين بالحجر، يشعلن ناراً أخرى: ناراً أصغر تأخذ الفرحة الكوانين فترمى برائحة الأرز شهيةً نحو الرجال!.

.. تأخــذ الفــرحة "سالم"، و "عبدالكريم" يرقصان بسيوف الخشب ويرفعان الأرجل أمام بعضهما في رقصات حلوة سريعة!.

طابور الخرفان والماعز لا نهاية له واللّحم في القدور على النّار يغلى أدخنة ورائحــة ملأت أنوف الشعاب، الرجل المُشَمر الذراعين المشعرتين لا يكف عــن حــركة الذبح، والجمْع تحلق ينتظر موعد اللمة ساعة يأكل كل الناس الصغير منها قبل الكبير.

– ذلك أن ذلك اليوم ليس ككل الأيام!!.

النار من بعيد تبدو وكأنها جوعى منذ خلقها الله!، تلتهم الحطب الذي يكسره

لهـــا "عبد الكريم" على ركبتيه الضئيلتين، "وعبد الكريم" لا يكف عن تكسير الحطب والصياح في فرح بدائي غريب.

"عـــبد الكريم" له وجه ممدود كوجه ذكر الحمام الصغير، بجلابيته يقفز في الخطـــوة الواحدة فراسخ عدة يشجَع الرجال متلفتاً بوجه الحمامة.. فرحان يزعق: النار يا رجال.. النار!! هاتوا النذور!.

يعـــود بعــدها ليلَقب النَّار وعلى وجهه تسيح فرحة النذور وحمرة الذبائح، يضـــيع صـــوته بين الأصوات الآتية من طوابير الرجال حوله.. كلُ يسحب بهـــيمة يســـوقها وهـــي بما تثيره في الأرض من دقيق التراب تثير شغب الصغار فيركضون وراءها بالعصيَ الصغيرة على مؤخراتها يضربون.

الأولاد الصغار كأنهم في يوم عيد: الحفاةُ منهم واللابسون القديم واللابسون الجديـــد.. بعـــض أولاد المدن يتعثر في قرن معزة ملقى أو حافر فيصرخ.. يضحك عليه عيال الجبل ويتقافزون بها خلفه، وهو يجرى فزعاً!.

البـــنات الصـــغار بأثـــوابهن المزروعة بأوراق الليمون الخضراء العريضة نـــوارات زهـــر البرسيم يتراجعن إلى الخلف خائفات: إن صاحب السكاكين دائماً مشمر الذارعين المشعرتين، يكبّر بصوت يهز الجبل وينحر في الدقيقة الـــواحدة عشـــرة مـــن الماعـــز، والماعز، والخرفان تنساق نحو النَّار في استســـلام غـــريب تُلقـــى على الضريح نظرة إجلال بَعدها تغض النظر إلى الأرض.. يقين كامل بداخلها ورضا عن كل ما تجود به في يوم كهذا.

- ذلك أن ذلك اليوم ليس ككل الأيام!!

ألوان الشفق تقترب من لون النَّار، وتخرج أولى بشائر اللحم المطبوخ على

الصــاجات الكبيــرة يهمس "عبد الكريم" للشيخ "الصابر" أن المغرب وجبت صلاته ووجب التنويه.

.. هناك حيث لا مآذن ولا سكان.

.. هــناك فــي تلك البقعة الشاسعة المحدودة تبدأ الجبال تُدبر جذوعها نحو الأفــق وتنظر لتجمعات البشر بمناقير ملونة..، بعض الصغار تغلبهم الرغبة في التبول فيتوارون خلف التلال الصغيرة، تلحق الغيرة ببعضهم.. فيرفعون الجلالـيب والسـراويل في تلذذ ويبدأون تفريغ المثانات فتلمع الأرض وراء الـتلال وتُـرطّب بمـياه بولهم ورائحة حارة تنبعث ومازالوا يتقافزون في انتظار فُرُش الحضرة واللحم والرقص طوال الليل!..

ررري...ررري "حلـوة يـا زغاريـد القبائل"... "حلوة يا "نصرة" و "سَالم" العَاشـق يغمـز من بعيد بأن المهر سيكون في يد "عبدالكريم" في مثل هذا الموسم من العام القادم.

ررري.. ررري..

لا دَاعي الآن للخيام فلتبدأ السيارات في التراص متجاورات ولتُشعل لمباتها و.. تقلب الخيام لفُرش.

شـفتا "رابحـة" من بعيد في إيقاع ضوء المساء الأول – الخافت – تبدوان مدهونتـين بالعسـل الأسمر.. بجوارها الشابات والطَار في اليد وكومة من الترمس في الحجْر.. يضحكن، وتضحك "رابحة".

تشخط فيهن العجوز الجميلة: تأكلن الترمس كاشفات وشكن ما تستحين!! حـين يغلبهن الضحك تضرب أفخاذهن زاعقةً – عاضةً على شفتين مازالتا

(جميلتين – قُمن يا بنات الــ..........!

ررري...........

"عبد الكريم" بوجهه الطيب الممدود يخبر الرجال من حوله أنها آخر الذبائح – "يشـــير إلـــى التى في يد الجزار" – وهاهي براميل الماء يُعاد ملؤها من جديد بسيارات المياه القادمة عن طريق "سفاجا" و"الحويطات"

... فـــي عيون الرجال المتحلقين حول النار تتقد فرحة بكر بدائية – بمنظر النار – وشرود – في منظرها وفي منظر الذبائح – مستحيل المقاومة!

.. "للنار والذبح والجبل تلك الفرحة حتى في عيون أولاد المدن"

لا شــــئ.. لا شــــئ ســـوى النار والحَضْرة واللحم وهواء الجبال والزغاريد والغناء للشيخ!!

"ياشيخ ياللى عَ الجبل.. اعملك فطيرة بْلَبَن"

(شــــئ لله يـــا شـــيخ "جامع") يعلو صوت "سالم" فرحان!! فيأخذ "عبدالكريم" التَجَلى ويهتز جسده في رقصه الذكَر.. حَيْ.. حَيْ!

.. من بعيد يأتى صوت "حسن" – حارس الضريح – مهللاً.

"ذلك أن ذلك اليوم ليس ككل الأيام."

عشر ساعات فقط بقيت ونرحل

اثنتا عشرة ساعة فقط بقيتْ... لنرحلْ!!

– هه.. اضحكوا، أو فلتتكلموا على الأقل.. ثرثروا كعادتكم.. ما الأمر؟!.

نعم؟! الحُزن.. يا سادة لا شئ يستحق!!.

جربوا إذن لذة الضحك بهستيرية في أشد المواقف حزناً.. كما تسمونها!!. ياه.. يالها من متعة!!، وأؤكد لكم أنكم حين تعتادون ذلك ستفاجئون أنفسكم بأشـــياء مدهشـــة بـــيد أنها لذيذة حقاً، مثلاً ستنفجرون ضاحكين في جلسة رسمية تتطلب الالتزام والتأكد من إحكام ربطة العنق، ستفقدون القدرة على إجـــادة الوقوف صامتين حين دقائق الحداد على أرواح الشخصيات الهامة، ســـيقول الـــناس إنكـــم لا أخلاقيون عابثون لكن..، ما هذا؟.. قولى لهم يا "إلهـــام"، أيـــتها الصغيرة المرحة إلى حد معقول.. ألست يا صديقتي معى؟! ألسنا يا شقيقتى صديقتين تُضحِكنا نفس الأشياء في نفس اللحظة؟!

– وَيْ.. حتى أنتِ يا صديقتى!!.

وأنا.. مابى؟! أشعر من أجلكم بالـــ..، لا لا لن أجعله يسيطر علىَّ مثلكم. مـــا ذاك الـــذي يبرق هناك.. ماذلك الذي هناك يضحكُ حين يدغدغه ضوء اللمـــبة النـــيون؟!، دعنا من ذاك الشيء الملقى هناك أمام المخزن المُرَبَّع القديم!، دعنا الآن من هذا كله!.

ياربَّ الجمال.. هذا الفَراش رائع في ضوء الساعة السادسة الخافت!

.. اثنتا عشرة ساعة فقط بقيتْ.. لنرحل!!.

غــداً أيهـــا الفَــراش لـــن تســـتطيع الحصول على هذه اللذة!! يا صغيرتي المســـكينة، لا تبتئســـي.. ابحثى عن ضوء آخر ستجدين.. حتماً ستجدين، "إلهام" وأنا نعتقد دوماً أن هناك حلاً!

هـــهْ.. "إلهام".. "إلهام" أُخرجى إلىَّ، دعيهم يُضيَعون الوقت الجميل في ذلك الشئ المدعو "الحُزن".. ذلك الذي لا يفيد!!.

نعــم.. وماذا يفيد؟! ماذا يفيد وقد بقيتْ اثنتا عشرة ساعة فقط.. ونرحل؟! هاتـــى يدك يا صغيرتى.. آه.. ما هذا؟!.. دُميةٌ حمراء مبتورة الذراعين!!.. دُميةٌ حمراء برقبة ورأس ووجه وشعر حُلو!!.. دُميةٌ بسلسلة زينة صغيرة رنَّانَة!!

.. دُميةٌ!!

.. دميتـــى! آه.. لا تضـــحكى منـــى الآن يـــا "إلهام"، دعيني.. أحياناً نحب الجلوس وحيدين مع دميتنا الحمراء القديمة المبتورة الذراعين!!

آه دعينى الآن يا صديقتى وحيدةً أمام مخزن الأشياء القديمة المُربَع، أحياناً لا نحـــتمل أن يهمـــس أحـــد من حولنا أو يتحرك، أحياناً حين نَضُم دُميتنا الحمـــراء القديمـــة نود لو سكتت كل الأصوات العاقلة حتى تلك القادمة من داخلنا.

– "إلهـــام" لا تطرقـــى برأسك هكذا.. هاتى لنا مشطاً.. هذه الدميةُ الصغيرة على يدى لم أمشط لها شَعرها منذ سنين!، أو... لا... لا تعالى، أقول لَك.. تذكرتُ، ابتسمى معى وهُزى رأسك في مرح هادئ.. تعالىْ مشطٌ هناك.. لابد

أنه قابع هناك بين أكوام الأشياء القديمة المسكينة.. هيا ندخل!.
صه.. مرح هادئ.. غَنِّي معى أغنية مرحلة هادئة حتى لا توقظيها!!
ماذا..؟! ماذا تقولين؟!
إحدى عشرة ساعة بقيتْ فقط.. ونرحل!!
إذن أسـرعى.. أسـرعى إذن، اقفزى معى العتبة العالية برشاقة.. بهدوء: بهـدوء حتـى لا نـوقظها!!، كل الأشياء هنا حلوة، كل الأشياء هنا حميمة قديمة ونائمة في سلام وبراءة!!
آه.. كومةٌ من أكياس البلاستيك الفارغة القديمة.. نَحيها جانباً.. تعالى!!.
لنبدأ أولاً بالبحث عن المشط!!.
ماذا؟! تتساءلين عن أى مشط نبحث؟!.
المشـط الأزرق الصغير.. ألا تتذكرينه؟! نعم.. كنت صغيرة جداً، لا تذكرين أنـت.. ابـتاعوه لـى معهـا خصيصاً لها كى أمشط به شعرها، ويُغنى لى بموسيقى.. تاتا.. تاتا.. تنْ.. تنْ..
آه.. يا "إلهام" لا تضحكى منى الآن من فضلك!!.
ابحثـى معـى.. هزى رأسكِ في مرح حالم.. ابتسمى ملء عينيكِ ووجهكِ وشفتيكِ مثلى حركيهما بهدوء: تا.. تا.. تا.. تنْ.. تا.. تا.. تا.. تنْ.. تنْ.. تاتا.. تنْ.. تنْ
ما هذا؟! كل هذا غبار!!.. لا يهم!!
"إلهام تعالى هنا، الق نظرة: كُراتنا البنج بونج.. انظرى إنها قديمة مسكينة مُصفَرة مضغوطة: تنْ.. تنْ! لابد أنه هُنا أو هُنا: تنْ.. تنْ!

.. آه مـــاذا قُلــتِ؟!.. عشر ساعات فقط بقيتْ ونرحل!! لا..، سأبكى الآن..
إنى أبكى.. لا تضحكى الآن منّى..!!
ما هذا أنت أيضاً بدأتِ البكاء!!.... آه.... بسرعة.... بسرعة يا "إلهام"....
تاتا... تا... تا.. تِنْ... تِنْ... تا... تا... تِنْ... تِنْ....

الكاتبة / منى سعيد

❋ من أبناء البحر الأحمر

❋ نشرت أعمالها فى الدوريات والصحف المتخصصة منذ عام ١٩٩٤ .

❋ صدر لها :

- تفاصيل الحلم اللذيذ عام ٢٠٠٠ .
- رائحة المطر عام ٢٠٠٥ .

إصدارات



اسم الكتاب	المؤلف
ونس	محمد الحسينى
عباد الضل	محمد الحسينى
صندوق الحزن	محمد الحسينى
غرفة السر	محمد الحسينى
مس الكلام	محمد الحسينى
طفل الفجر	جوتاما شوبرا (ترجمة / ظبية خميس)
لينا والبرتقال	سليمان نزال
صاحب القلنسوة	حياة الحضرى
دراما اللوحة	أ. د. / مصطفى يحيى
رائحة المطر	منى سعيد